

مصطفى أفندي | Mustafa Afandy\*

## ذاتيات هشة: عسكرة الحياة اليومية في حرب نيسان/ أبريل 2023 في السودان

### Fragile Subjectivities: The Militarization of Everyday Life in Sudan's April 2023 War

**ملخص:** تسعى الدراسة إلى استكشاف بعض الديناميكيات الصغرى الكامنة في السياق السوداني على إثر الحرب التي اندلعت في 15 نيسان/ أبريل 2023. وتخصّ بالبحث ما تفترض أنه الحيز الأساسي لتجلي تلك الديناميكيات في المجتمع، وهو الحياة اليومية. وتحتاج، اعتماداً على ملاحظات مستقاة عبر الإثنوغرافيا التركيبية، بأن الحرب الجارية مثّلت لحظة تكثّف وتوزيع لمسار تاريخي من العسكرة مرّ به السودان منذ المرحلة الاستعمارية وما تلاها. وتخلص إلى أنّ هذه الصيرورة من العسكرة تعيد تشكيل أنساق الوجود والممارسات اليومية، في نطاق حرب 15 نيسان/ أبريل، وفق الاعتبارات الحدية للعمل العسكري بوصفه ممارسة سيادية، وترسم حدود الوجود والفعل اليوميين على متّصلٍ من إنتاج الهشاشة، وتدويتها، ومقاومتها.

**كلمات مفتاحية:** العسكرة، الحياة اليومية، الهشاشة، حرب نيسان/ أبريل 2023، قوات الدعم السريع.

**Abstract:** Grounded in the assumption that the “everyday” is the central site where the micro-dynamics of every society manifest, this article examines the micro-dynamics of the April 2023 war by using the everyday life of Sudanese civilians in Khartoum as its observational site. Drawing on data collected through patchwork ethnography, it offers militarization as a conceptual framework for situating these micro-dynamics within Sudan’s (post)colonial history. It argues that the current war in Sudan represents not a moment of rupture but rather a manifestation and amplification of a long process of militarization of the Sudanese state and society. Perceived as such, the ongoing war intensifies the effects of militarization in Sudan, thereby restructuring the subjectivity of Sudanese civilians along a continuum of producing, internalizing, and resisting fragility.

**Keywords:** Militarization, Everyday Life, Fragility, April 2023 War, Rapid Support Forces.

\* باحث دكتوراه في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية في جامعة تورونتو، كندا.

PhD Researcher in Socio-Cultural Anthropology at the University of Toronto, Canada.

Email: [mustafa.shouia@mail.utoronto.ca](mailto:mustafa.shouia@mail.utoronto.ca)

## مقدمة

في 15 نيسان/أبريل 2023، كان للعاصمة السودانية الخرطوم موعدٌ مع اشتباك مسلح بين الجيش السوداني وقوات الدعم السريع. وسرعان ما تحولت هذه الاشتباكات إلى حرب وسّعت عدداً من ولايات السودان، متوّجةً سنوات التآرجح السياسي التي أعقبت انتفاضة كانون الأول/ديسمبر 2018 بقفزة نحو فراغ مجهول العواقب. منذ اندلاع الحرب، كُتب كثير في استقراء الأبعاد العسكرية والجيوسياسية للصراع الدائر<sup>(1)</sup>، أو في الاستجابة لما يفرزه من مآسٍ إنسانية<sup>(2)</sup>، وتداعياته على مستقبل البلاد. والجامع بين معظم التحليلات المقدّمة، هو انطلاق مقارباتها مما يمكن تسميته "الحدث الكبير"، ممثلاً في الحرب، ومن سرديات وأفعالٍ لفاعلين مركزيين فيه، مثل الجيش السوداني وقوات الدعم السريع. وتستجيب الدراسة لهذا الحدث، محاولةً في الوقت ذاته الفكّك من انشدها إزاء هوله ومراكز إنتاج عنفه وسردياته، من خلال إعادة تموضعه ضمن صيرورة تاريخية تتجاوز لحظة انفجاره. ومن ناحية أخرى، تعمل على بلوغ هدفها، عبر الإسهام في ردم الهوة بين التفكير المنهجي في الحرب الدائرة والديناميكيات الصغرى الكامنة في سياقها، مفترضةً أنّ الحياة اليومية هي الحيز الأساس لتجلي هذه الديناميكيات. من منطلق الفهم والاستكشاف، تطرح الدراسة سؤالها المركزي على النحو التالي: كيف نفهم الديناميكيات الصغرى الكامنة في حرب 15 نيسان/أبريل السودانية، وآثارها في مستوى الحياة اليومية للمدنيين في السودان؟

منهجياً، تجسد الدراسة بعض ما تعنيه ممارسة الإثنوغرافيا في سياقٍ "معسكر"؛ إذ أعول على الإثنوغرافيا التركيبية Patchwork Ethnography مقارنةً منهجيةً تخلخل الفصل التقليدي بين البيت والحقل، والشخصي والمهني في الممارسة الأنثروبولوجية. وأتلمّس فيما تلقية الإثنوغرافيا التركيبية من ضوء على مركزية التجربة الشخصية للباحث/ة في العمل الإثنوغرافي، خاصة في سياقات تحدّد إمكانيات الوصول إلى حقل الدراسة في هيئته الكلاسيكية، الاستفادة من تجربتي الذاتية مع هذه الحرب لاستكشاف أنواع مختلفة من البيانات التي تشكّل عماد هذه الدراسة<sup>(3)</sup>، حيث أستجمع طيفاً من البيانات التي جُمعت في الفترة نيسان/أبريل 2023-شباط/فبراير 2025، منها: أربع مقابلات مطولة مع امرأة وثلاثة رجال تراوح أعمارهم بين 25 و38 عاماً ممّن عايشوا الحرب في مدينة الخرطوم (خاصة في مناطق الديوم الشرقية في وسط الخرطوم، وشمبات الحلة شمالها، وأم درمان القديمة

(1) ينظر: خالد محمد علي، "المسار المحتمل.. ماذا يجري في السودان؟"، مركز رز للدراسات الاستراتيجية، 2023/7/16، شوهد في 2024/12/12، في: <https://acr.ps/1L9BPxJ>

(2) ينظر على سبيل المثال:

"UN Deputy Chief Appeals for Global Solidarity as Crises Roil East Africa," *UN News*, 30/8/2024, accessed on 8/10/2025, at: <https://acr.ps/1L9BPJq>

(3) للمزيد حول الإثنوغرافيا التركيبية، ينظر:

Gökçe Günel & Chika Watanabe, "Patchwork Ethnography," *American Ethnologist*, vol. 51 (2024), pp. 131-139.

غربي العاصمة) مدة تراوح بين شهر وعامين، ومجموعة نقاشية واحدة ضمت 5 أشخاص<sup>(4)</sup>، إلى جانب يوميات إثنوغرافية دوّنتها خلال وجودي في السودان في الفترة 15-30 نيسان/ أبريل 2023، وبيانات استقيتها من وسائط التواصل الاجتماعي والتقارير الصحفية، إضافة إلى سيل من المحادثات اليومية مع أصدقاء وأقارب وزملاء، وجدت طريقها إلى هذه الدراسة عبر أداة جمع بياناتها الرئيسة، وهي ذاتي بوصفها جسداً وتجربةً حسيةً تعيش ما يجري فيها وحولها خلال هذه الحرب، وتحاول فهمه.

توظّف الدراسة مفهوم العسكرة Militarization بتحوير سوسيو-أثروبولوجي، لفهم بعض مآلات الحياة اليومية في السودان والذوات المنخرطة فيها خلال الحرب الجارية. فمن خلال مفهومة عن هذا المآل على أنه عسكرة للحياة اليومية Militarization of Everyday Life، أحاج بأنّ تجربة العيش في نطاقات الحرب الحالية تعيد تشكيل ذاتية المدنيين فيها، بوصفها ذاتية معسكرة تستقي سماتها المميّزة، وهي الهشاشة، من علاقتها الوطيدة بالاعتبارات العسكرية التي تحكم الصراع الدائر. وما يميز مفهوم العسكرة، هو توفيره إطاراً لفهم بعض أشكال الهيمنة المفروضة بقوة السلاح على المستوى اليومي في سياق "طارئ"؛ هو حرب نيسان/ أبريل 2023. ويمكن في الوقت نفسه، بفضل تعبيره عن حالات نسقية تتضمن وتتجاوز الممارسات الفردية للذوات الفاعلة في هذا السياق، من ربط هذه الحرب بصيرورات أعمق كامنة منذ بدايات تشكّل الدولة السودانية الحديثة. إن ما تطرحه الدراسة، بهذا المعنى، ليس تحليلاً لحديث، أو تأويلاً لتمظهر بنية متعالية Transcendental Structure، بل هو استكشاف لسمة نسقية في صيرورة من التشكّل وإعادة التشكّل، على امتداد تاريخ الدولة الحديثة في السودان، تقدّم نفسها في تمظهر كثيف هو حرب نيسان/ أبريل<sup>(5)</sup>.

(4) أجريت جميع المقابلات في الدوحة خلال الفترة أيار/ مايو 2024-كانون الأول/ ديسمبر 2024 هاتفياً عبر واتساب، باستثناء مقابلة واحدة مع إحدى المشاركات في البحث، أجريت وجهاً لوجه خلال تشرين الثاني/ نوفمبر 2024، والمجموعة النقاشية التي أجريت في آب/ أغسطس 2024. كان المعيار الأساسي لاختيار هذه العينة هو امتلاك المشاركين تجربة العيش في مدينة الخرطوم، ولو فترة وجيزة، بعد اندلاع الحرب في 15 نيسان/ أبريل 2023، من أخذ العمر، والنوع الاجتماعي، والخلفيات السياسية معايير مصنفة لنوعية المشاركين. وقد طُرحت على المشاركين والمشاركات في البحث أسئلة تتعلق بتجربتهم اليومية، ابتداءً من استجابتهم لحظة اندلاع الحرب (مثل مسكنهم، وموقعهم الجغرافي عند اندلاعها، والقرارات التي اتخذوها - كالبقاء أو المغادرة، والعوامل المؤثرة في ذلك)، مروراً بكيفية عيشهم لروتينهم اليومي وما استجد في هذا الروتين منذ اندلاع الحرب، وانتهاءً بالمواقف التي تعرضوا لها عند أيّ تماس مع قوة عسكرية، سواء من الجيش أو الدعم السريع. وبالنسبة إلى آلية الوصول إلى العينة، فقد وُظفَت شبكة المعارف التي أسستها سابقاً باعتباري جزءاً من سياق البحث، وتواصلت مع بعض المشاركين بناءً على اقتراح بعض الزملاء الذين أطلعهم على مشروع البحث وكانوا على معرفة بتجارب بدت، لي ولهم، ذات صلة بسؤال البحث. أمّا بيانات وسائط التواصل الاجتماعي فهي مستقاة من فيسبوك، وتيك توك، وإنستغرام، والتي ركزت فيها على المنشورات النصية والفيديوهات التي وثق فيها المدنيون تفاعلهم مع مجريات الحرب الجارية عبر نشر مقاطع لعمليات عسكرية، أو التعليق عليها، والتي وُظفَتها على نحو أساس في اختبار بعض الفرضيات المبنية على تجربتي الشخصية خلال الفترة الأولى للحرب، والتي شاهدت فيها المدنيين ينخرطون يومياً في عمليات تتبع مجريات المعارك، وتحليلها، ونقدها.

(5) تتموقع الدراسة عبر إحدائيات ثلاثية تنتقل فيها بين الذوات مروراً بالممارسات الاجتماعية، وصولاً إلى النسق الاجتماعي - السياسي الكامنة فيه. وتعكس هذه الإحدائيات مستويات متباينة من الفاعلية الاجتماعية (الفردية، والجماعية، والنسقية)، وعمل العسكرة في حركتها الدؤوبة بين هذه المستويات. وستوضح التحليلات التالية أن العسكرة، حين نطرحها مفهوماً عابراً للحدود بين مستويات تحليل الواقع الاجتماعي المختلفة، تتجاوز المقابلة بين البنية والفعل، لتكشف عن القيمة النقدية لفحص فضاءات تواشج مستويات الفعل الفردي والجماعي والنسقي.

تحقيقاً لذلك، تُقدّم الدراسة في قسمين، يحاول الأول منهما تجذير العسكرية ضمن بعض الافتراضات النظرية المضمّنة في التفكير حول تأسيس الدولة الحديثة، مقترحاً إعادة مفهومة إجرائية للعسكرة استجابةً لخصوصية ما يجري اليوم في السودان. أمّا القسم الثاني، فيستعرض بعض مؤشرات العسكرية وتمظهراتها على مستوى الحياة اليومية في أعقاب حرب نيسان/ أبريل 2023.

## أولاً: نحو إطار نظري لمقاربة العسكرية في السياق السوداني

### 1. لم نكن يوماً سياسيين فحسب: بنية العسكرية ووظيفية الجيوش في الدول الحديثة

ما بعد كارل شميت وخلخلته لبعض المفاهيم المؤثرة لنقاشات الحداثة حول السياسة، لم يعد متاحاً لنا أن نتحدّث، بصوتٍ متيقّن، عن الحرب والسياسة بوصفهما مجالين منفصلين. لنا في تعريفه للسيادة بوصفه من يقرر في حالة الاستثناء، وتأطيره السياسي وفق معيار تحديد العدو - الصديق، عجلتان تدحرجان ما صُنّف، ضمن نسق فلسفي ليبرالي، جذرياً ومطلقاً ولاعقلانياً، صوب مركز ما افترض أنه نسبي وحواري وعقلاني؛ إذ أعاد تأطير الحرب، بوصفها تمظهرًا لحالة العداء، في قلب النقاش حول السياسي<sup>(6)</sup>. ويمكن قراءة وضعية المؤسسات العسكرية ضمن الهندسة الوظيفية للدولة الحديثة، بوصفها المؤسسة المضطلعة بتلك المهمات "الجذرية"، ذات الطابع الوجودي بالنسبة إلى الدولة. فقد فهمت الوظيفة الأساسية للجيوش الحديثة على أنها حماية الدولة - الأمة من العدوان الخارجي المرتبط من حيث المبدأ بـ "آخر" خارجها. غير أنّ حُلّة الحماية، بلبوسها الفضفاض ودلالاتها المرنة، الملازمة لتوسّع نطاق السلطة السياسية في الدولة الحديثة، أتاحت إعادة تعريف "العدو" على أنه كل من/ ما يصنّفه السيادي (أو وكيله المعني بالحماية) على أنه "تهديد"، سواء استقرّ خارج حدود الدولة القومية أم كان داخلها<sup>(7)</sup>.

يبدو في مستهلّ هذا النقاش أن ثمة عاملين يجعلان انزلاق الجيش نحو ممارسة السياسة إمكاناً قائماً في كل دولة، بغضّ النظر عن طبيعة نظامها السياسي. يُشتق أولهما من فرضية التوصيف الفييري (نسبةً إلى ماكس فيبر) للدولة بكونها مالك حق احتكار الاستخدام الشرعي للقوة القهرية ضمن جغرافيا سياسية محددة؛ وهو ما يجعل الجيش القومي، بحكم حيازته القسط الأكبر من الأدوات والمعرفة والتدريب العسكري<sup>(8)</sup>، أقدر على توظيف العنف مقارنةً بمؤسسات أخرى تقاسمه حقوق الاستعمال

(6) كارل شميت، مفهوم السياسي، ترجمة سومر المير محمود (الجيزة: مدارات للأبحاث والنشر، 2017)، ص 75-87.

(7) من لبوس الأمن القومي المستطيلة عباءته يوماً بعد يوم، يطلّ رهان أساسي للديمقراطية يتعلق بمدى قدرة الدول الحديثة على تأمين توازن بين اضطلاع جيوشها بمهام السياسة، في معناها الواسع، من دون أن تتحول فاعلاً منخرطاً في الصراع على السلطة. للمزيد حول هذا الرهان وصلته الوثيقة بطبيعة الدول الحديثة، ينظر: عزمي بشارة، الجيش والسياسة: إشكاليات نظرية ونماذج عربية (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

(8) يقرأ أبيغيل هال وكريستوفر كوين، في دراسة حول عسكرة المنظومة الشرطية والأمنية في الولايات المتحدة، ظاهرة العسكرية ضوئاً فرضية أنّ "امتلاك الحكومة للقوة العسكرية والأسلحة والتنظيم والتدريب العسكري تعدّ أحد العوامل التي تعزز من قدرتها على التغلّب على حقوق المدنيين وحياتهم". إلا أنّ عملهما يقف عند حدود فهم انعكاسات هذا التوظيف الحكومي لأدوات المؤسسة العسكرية، من دون تتبعه إلى تناقضات تأسيسية بالنسبة إلى الدولة بوصفها تشكيلاً تاريخياً.

Abigail R. Hall & Christopher J. Coyne, "The Militarization of U.S. Domestic Policing," *The Independent Review*, vol. 17, no. 4 (2013), p. 485.

الشرعي للقوة القهرية داخل الدولة<sup>(9)</sup>. في حين يكمن العامل الثاني في الحزمة الأيديولوجية التي تُبنى عليها المؤسسة العسكرية ضماناً لنجاحها في أداء مهمة الحماية؛ إذ تنطوي هذه الحزمة على مفاهيم تمثل جزءاً عضوياً من صناعة/ تنشئة الجندي داخل المؤسسة العسكرية، وتُغرس بصفة رسمية (مثل مبدأ التضحية بالنفس المأسس بالقسم الذي يؤديه الجندي) وغير رسمية (مثل توطيد "الرفاقية" بوصفها مبدأ حاكماً للعلاقة بين الجنود). وهكذا، لا يغدو الجنود زملاء مهنة فحسب، بل رفاقاً أيضاً؛ تستند رفاقتهم إلى تعاملهم (أو استعدادهم الدائم للتعامل) مع "الجندي"، ذلك الاستعداد الدائم للقتل/ الموت في سبيل غاية أسمى<sup>(10)</sup>. هذا التعامل مع الجندي، وتقييده عنصراً مُعرِّفاً للعقيدة والثقافة التنظيمية للجيش الحديثة، هو ما يدفع هذه الدراسة إلى التعامل مع العمل العسكري بوصفه عملاً حديثاً<sup>(11)</sup>.

تسهم هذه المبادئ، في تعاضدها مع الشروط المادية للدولة، أي حالة امتلاك الجيش لأدوات عنف أكثر من غيره من المؤسسات، وبمفاهيم الذكورة المتنحية في منظوماتنا الأبوية، في خلق توتر بين الشخصيتين "المدنية" و"العسكرية". وتتفاقم (أو تقعم) حدة التناقضات بين المؤسسة العسكرية والممارسة السياسية المدنية تبعاً لخصوصية الشرط التاريخي لكل دولة من حيث طبيعة نظامها السياسي، ومؤسساتها، ومدى توافر تقاليد عمل سياسي مدني راسخة، إلى غير ذلك. وكما ستبين الدراسة لاحقاً، فإن العلاقة بين الجيش والسياسة والأمة في السياق السوداني لطالما اتخذت شكلاً وصائياً، يتمثل فيه الجيش دور الأب الحامي لأفراد عائلته<sup>(12)</sup>.

خلاصة هذه الملاحظات التمهيدية هي أن لإشكاليّة التنظيم الوظيفي للدولة الحديثة، والأسس المادية والخطابية التي بُنيت عليها الجيوش الحديثة، صلة مباشرة بالنقاش النظري حول العسكرة. وتزعم الدراسة في هذا السياق، أن إشكالية العلاقة بين المؤسسة العسكرية والمجال السياسي ربما عملت بمنزلة بنية ذهنية، وجهت قسماً معتبراً من التفكير الأكاديمي في العسكرة، رافعةً سقف تحديات تأطيره. ولعل ما يعزز هذه التحديات هو أن توسّع استعمال مفهوم العسكرة، في مختلف المجالات الإعلامية والسياسية والحقوقية، قد كثّف ضبابية الحدود الفاصلة بين ضبطه أكاديمياً واستعماله العمومي، هذا فضلاً عن أن عودته إلى مراكز النقاش السياسي والأكاديمي خلال العقود

(9) H. H. Gareth & C. Wright Mills (trans. & eds.), *From Max Weber: Essays in Sociology* (New York: Oxford University Press, 1946), p. 78.

(10) حول مفهوم الرفاقية/ أخوية الجنود، ينظر: بشارة، ص 81-83.

(11) يمكن التعمق في توظيف "الحدّ" مدخلاً لقراءة البنى الأيديولوجية وطرائق عملها بالاطلاع على: إسماعيل ناشف، "عمل الحدّ: قراءة مختلفة للصهيونية"، تبين، مج 9، العدد 34 (2020)، ص 45-79.

(12) تتزايد حاجتنا اليوم إلى مقاربات نسوية تعيد قراءة تاريخ السياسة السودانية، والأيديولوجيات المتنازعة فيها، لا للكشف عن تواريخ تهميش النساء فحسب، بل كذلك لاستكشاف إمكانية إعادة تركيب هذا التاريخ بغرض استشراف آفاق نقدية، تتجاوز مقولات التمثيل والتمكين والمشاركة السياسية للنساء التي هيمنت على النقاش النسوي السوداني طوال عقود. جديرٌ بالإشارة هنا المشروع الواعد لمجلة فريدة، التي دشنت عددها الأول في أيلول/ سبتمبر 2024 بمقاربات نسوية عن الدولة والعسكرة.

الثلاثة الماضية، عبر بوابتي التوسع الرأسمالي والانتقال الديمقراطي، استجلبت معها افتراضات نظرية تتجاوز ما تحيل إليه العسكرية ومؤشراتها.

## 2. العسكرية: تاريخ الظاهرة أم تاريخ المفهوم؟

يمكن تتبع تاريخ مفهوم العسكرية إلى فترة الحربين الأوروبيتين الأولى والثانية، حينما تلازم استعماله مع مفهوم الأيديولوجيا العسكرية Militarism تعبيراً عن جملة من الظواهر التي تضمنت "هيمنة العسكريين على المدنيين، وسيادة الاعتبارات والقيم والروح العسكرية على حياة الدول"<sup>(13)</sup>. في محاولة للتمييز بين المفهومين، عرّفت سينثيا إنلوي الأيديولوجيا العسكرية بأنها حزمة من المبادئ القائمة على إقحام القيم الحاكمة للعلاقات العسكرية في إدارة مختلف الشؤون المدنية. وتعتمد هذه الحزمة إلى تطبيع مجموعة من المعتقدات المستقاة من قيم المؤسسة العسكرية؛ أهمها تكريس صورة الرجل حامياً والمرأة موضوعاً للحماية، وتقعيد العداء Enmity والتراثية بوصفهما حالات طبيعية، فضلاً عن إعطاء أولوية للقوة القهرية أداة لحل الخلافات، على حساب أشكال أخرى من التفاعل<sup>(14)</sup>. أمّا العسكرية، فقاربتها على أنها عملية سياسية واجتماعية ونفسية شاملة، يتشرب من خلالها الأفراد أو الجماعات أو المجتمع القيم والممارسات المضمنة في النزوع العسكري<sup>(15)</sup>. ويُمائل هذا التمييز بين المفهومين والعلاقة المقامة بينهما تلك الرابطة التي تصل المبادئ الأيديولوجية بتجسيدها، بوصفها ممارسات سلطوية ممأسسة. فإذا ما سلّمنا بأن حزمة الأيديولوجيا العسكرية تتضمن تصوراً أبوياً للأدوار الجندرية، يحتل فيه الرجل موقع الحامي والمرأة موقع موضوع حمايته، فإن تجسيد هذا المبدأ بوصفه عسكرية يُنجز، بالنسبة إلى إنلوي، عبر "تبني مؤسسات التنشئة الاجتماعية نظاماً تعليمياً يلقّن فيه الأطفال الذكور والإناث كيفية الاضطلاع بمهامهم/هن حماة أو ربّات بيوت"<sup>(16)</sup>.

تقترب التعريفات الأخرى المطروحة للعسكرة من التعريفين السابقين أو تبتعد عنهما بمقادير متباينة، لكن معظمها يعود ليلتقي في ثلاثة مشتركات محورية: أولها، استبطان الدلالة المعجمية لفعل يُعسكر Militarize، والتي تختزن مبدأ تحويل أو إدماج ما لم يكن شأنًا عسكرياً في الأصل، ضمن دائرة النفوذ والمنطق العسكريين<sup>(17)</sup>. ثانيها، افتراض هذه التعريفات شكلاً من التنظيم السياسي مركزه الدولة القومية، وتصوراً حداثياً لهذا الشكل من الاجتماع السياسي المنقسم إلى مجالات ذات طابع تخصصي كالاقتصاد، والسياسة، والحرب وغيرها. أمّا ثالث ما يجمع شتات

(13) يرد هذا التعريف في إحدى الكتابات التأسيسية في تاريخ العسكرية، ينظر:

Alfred Vagts, *A History of Militarism: Civilian and Military* (New York: The Free Press, 1959), p. 14.

(14) Cynthia Enloe, *Globalization and Militarism: Feminists Make the Link*, 2<sup>nd</sup> ed. (Lanham: Rowman & Littlefield, 2016), pp. 11–12.

(15) Ibid., p. 12.

(16) Ibid.

(17) لمثال على هذه التعريفات، ينظر:

Philip A. Kuhn, *Rebellion and Its Enemies in Late Imperial China: Militarization and Social Structure (1796–1864)* (London: Harvard University Press, 1970), pp. 13–15.

هذه التعريفات، فهو اتفاقها النسبي على عدة مؤشرات تستند إليها بوصفها معايير قياس ظاهرة العسكرية، سيأتي تفصيلها لاحقاً.

يمكن ردّ المشتركين الأول والثاني إلى واقع تبلور تعريفات العسكرية ضمن مخيلة ليبرالية، تستبطن التمييز بين الحرب والسياسة، والتي مررنا على لبنات أشكالتها مع شमित. تظهت تبعات هذه المسلّمة في قلّة عناية معظم الأدبيات الراهنة بإجراء تمييز بين العسكرية، بوصفها إمكاناً أصيلاً مشتقاً من فكرة الاجتماع السياسي و/أو الدولة نفسها، والوعي بها، بوصفها ظاهرة مُعرّفة حديثاً، لها تاريخ ومؤشرات يمكن قياسها بالرجوع إلى وقائع عينية. ولعل ما شهدناه من توسّع أدبيات العسكرية، منذ سبعينيات القرن العشرين، يؤرّخ لإحدى لحظات الوعي بالعسكرة موضوعاً للتفكير المنهجي، تزامناً مع تكتّف مظاهرها، أكثر من عنايته بفهم شروط إمكانها الماثلة في أشكال التنظيم السياسي التي يشهدها عصرنا. تبعاً لذلك، يُقبل علينا مفهوم العسكرية اليوم مستمسكاً بتلابيب مفاهيم أخرى على غرار الأيديولوجيا العسكرية والأمننة Securitization، والمجمّع الصناعي العسكري Military-Industrial Complex<sup>(18)</sup>. وقد ظلّت الحدود الفاصلة بين مفهومَي العسكرية والأيديولوجيا العسكرية، على وجه التحديد، ضبابية إلى حدّ جعل استعمالهما على أنهما مرادفان سمة بارزة في معظم الأدبيات ذات الصلة<sup>(19)</sup>. فعلى سبيل المثال، يدمج مايكل مان المفهومين ضمن جهاز تحليلي، يتتبع من خلاله بروز العسكرية/الأيديولوجيا العسكرية، بوصفها ظاهرة اجتماعية - سياسية. وخلافاً للمقاربات التي تربط ميلاد الأيديولوجيا العسكرية/العسكرة بنشأة النظام الرأسمالي، تتبع مان العسكرية إلى تواريخ أسبق، جعلت ارتباطها بالرأسمالية ارتباطاً طارئاً، تُمثّل فيه الرأسمالية لحظة تكتّف وتसारح في الوتيرة، لا شرط ميلاد عضوي للعسكرة<sup>(20)</sup>.

في إسهام مغاير، حاولت لورين داولر القفز فوق شراك تداخل مفهومَي العسكرية والأيديولوجيا العسكرية، بالارتكاز إلى زانة نسوية، تُخلخل عبرها مركزية الدولة القومية في التعامل مع المفهومين. ففهمت العسكرية على أنها أحد أنماط الحشد من أجل الصراع، وتعاملت مع الأيديولوجيا العسكرية، بوصفها تعبيراً عن سلوكيات المجتمع إزاء الفاعلية العسكرية. وقد أرجعت داولر بروز العسكرية إلى تاريخ حديث نسبياً، هو ثمانينيات القرن العشرين، وتناولتها باعتبارها مرآة تعكس تأثير القيم العسكرية في الثقافة اليومية<sup>(21)</sup>. وسيشكّل التوليف بين مداخلتي مان وداولر عتبة نظرية أولى أفق فيها على

(18) يُعبّر مفهوم "المجمّع الصناعي العسكري" عن منظومة ترابط المؤسسات العقابية والسجنية مع شركات صناعية وتجارية، بصفتها أساس إعادة إنتاج أنظمة ترابعية، تُشكّل عماد ما عُرف بـ "الرأسمالية - العرقية" Racial Capitalism. للاطلاع على كتاب مركزي ضمن هذا التيار، ينظر:

Michelle Alexander, *The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colorblindness* (New York: The New Press, 2010).

(19) ينظر على سبيل المثال:

Michael Mann, *War and Capitalism: Studies in Political Sociology* (Oxford: Basil Blackwell, 1988).

(20) Ibid., pp. 127-128.

(21) Lorraine Dowler, "Gender, Militarization, and Sovereignty," in: Lise Nelson & Joni Seager (eds.), *A Companion to Feminist Geography* (Malden: Blackwell Publishing, 2005), p. 491.

محاولتهما فك الارتباط الجوهري بين العسكرية والرأسمالية (لدى مان) من جهة، وبين العسكرية والدولة - القومية (عند داولر)، من جهة أخرى. ففي الوقت الذي يعضد فيه رأي مان ما اقترحه من ضرورة التمييز بين العسكرية بوصفها إمكانًا ماثلاً في الافتراضات المؤسسة للدولة وبين تمظهراتها التاريخية، يشكّل نقد داولر لبنة موقفي الداعي إلى مقاربة العسكرية بالاستناد إلى وحدات تحليلية أصغر من الدولة<sup>(22)</sup>، وهو مران خُصص له القسم الثاني من هذه الدراسة.

أمّا المؤشرات المجمع عليها في قياس ظاهرة العسكرية، فهي تتضمن تزايد الوجود العسكري في القطاعات المدنية داخل الدولة، وتدخل الجيش في شؤون الحكم والقرار السياسي، وتوسّع الإنفاق العسكري والصناعات العسكرية، وتكثيف الحضور العسكري على الحدود الدولية، إلى جانب إدماج قطاعات مدنية (كالإعلام والاقتصاد) ضمن إطار الشؤون العسكرية، وتبني خطابات عدائية تجاه الخصوم الداخليين<sup>(23)</sup>. يجسّد هذا الاتفاق النسبي على مؤشرات قياس ظاهرة العسكرية، في مقابل تنوع تعريفاتها، أزمة التعريف بما هو محاولة لبناء تجريد معياري لمجموعة وقائع ومشاهدات متباعدة وتاريخية الطابع. ولو استعرت لسان طلال أسد، لاجترتُ قائلاً إنّ التعريف ليس سوى فعل تاريخي، يُمارَس داخل أنساق من علاقات السلطة والشروط الإستيمولوجية لإنتاج المعرفة<sup>(24)</sup>. ما أفرحه تالياً هو إطلاق العنان لبطش "التاريخي" إزاء تجريداته النظرية، مستمراً إياه في إعادة تأطير إجرائي لمدلولات "العسكرية" في سياق هذه الدراسة.

### 3. السودان: تاريخ موجز للعسكرية

لنا أن ننطلق من السؤال التالي: ما الذي يعنيه توظيف العسكرية أداةً لتحليل الواقع السوداني؟ يحيل سؤال المعنى هنا إلى عملية إعادة تشكيل متبادلة، أفكك فيها مفهوم العسكرية شرط توظيفه لقراءة ما يعتمل اليوم في السودان من ناحية، وأعيد من ناحية أخرى تركيب التاريخ السوداني بصفته أثر فعل قراءتي له من حيث هو تاريخ من العسكرية. تشترط هذه القراءة عدم الانطلاق من لحظة تاريخية مرجعية، يُنسب إليها بداية كرة ثلج العسكرية في السودان، بل الوقوف بعين التأمل على بعض لحظات تكثف تمظهراتها وفحص ملامح الاستجابات المعرفية المطروحة إزاءها، وتلك خطوة ضرورية لأشكلة مفهوم العسكرية قبل مفهمته إجرائياً.

في سياقاتٍ توسّم بأنّ جذور الدولة الحديثة لم تضرب فيها عمقاً كافياً، كحال السودان، لا غرو أن يظل المجال السياسي "المدني" دائم العُرْضة لتغوّل المنطق العسكري. فعلى امتداد تاريخ السودان الحديث، ارتدى هذا الغول حُلل انقلابات عسكرية، ومعارضات مسلّحة، وقمع عسكري لأشكال

(22) للاطلاع على محاولة من هذا القبيل، ينظر:

Brad West & Thomas Crosbie, *Militarization and the Global Rise of Paramilitary Culture: Post-Heroic Reimaginings of the Warrior* (Singapore: Springer, 2021).

(23) ينظر على سبيل المثال: 11-12، pp. Enloe.

(24) طلال أسد، *جينالوجيا الدين: الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام*، ترجمة محمد عصفور (بنغازي: دار المدار الإسلامي، 2017)، ص 53-69.

الفعل السياسي المناهض للأنظمة السياسية<sup>(25)</sup>. فما شهدته السودان، منذ استقلال علمه عن الاستعمار البريطاني (1956)، من حروب ونزاعات مسلّحة بين الدولة المركزية وحركات معارضة لها في الأطراف، بلغ حدًا يكاد يجعل تاريخ الدولة الوطنية في البلاد تاريخ "حالة الاستثناء"<sup>(26)</sup>. ضمن هذا التاريخ، تبرز فترة نظام الإنقاذ (1989-2019) لحظة مركزية، تكثفت معها مظاهر العسكرة وتسارعت وتيرتها وتوسّع نطاقها ليشمل قطاعات أوسع من الحياة الاجتماعية، لا سيما الاقتصاد والإعلام والنظام التعليمي. وخلال هذه الحقبة، بدأنا نتلمّس بوادر تناول الأكاديميا السودانية العسكرة، بوصفها ظاهرة وموضوعًا للتفكير/ الكتابة.

إشكالية هي تواريخ الكتابة عن العسكرة في السودان، على قلّتها؛ وذلك لارتباطها بمشاريع سياسية مناهضة أو مدافعة عن أنظمة عسكرية بعينها<sup>(27)</sup>؛ إذ يجد المتأمل في تاريخ الكتابة السودانية عن العسكرة أنها دُوّنت في معظم الأحيان، كما لو كانت استعارة عن علاقة معطوبة بين مؤسسة الجيش والنخب السياسية المدنية<sup>(28)</sup>. ففي مقابل استتقال تتبّع العسكرة إلى الافتراضات المؤسسة للدولة الحديثة في السودان، انحصر التعامل معها في إطار تحليل دوافع انخراط النخب العسكرية في شؤون الحكم<sup>(29)</sup>. وكأنما تُخيّل أن ثمة "لحظة صفر" كانت فيها المؤسسة العسكرية السودانية إناءً مفرغًا، محايدًا ومهنيًا، ما فتئت النخب السياسية المدنية تملؤه بأيديولوجيتها للاستعانة به انقلابيًا متى استطلّ عليها الطريق الانتخابي إلى السلطة. فترتّب على هذا الفهم أن احتلت دعاوى تحرير المؤسسة العسكرية أو "تنقيتها" من الأيديولوجيا الحزبية مكانة مركزية في المشاريع المقدمة لحل أزمة الدولة السودانية<sup>(30)</sup>. ما يعيب هذه المقاربات، على الرغم من سداد دعوتهن إلى رفع يد الجيش عن الحكم، هو وقوفها عند مستوى تحليل العلاقات المدنية - العسكرية، من دون خوض كافٍ في الشروط المادية لهذه العلاقة وتبعاتها على مجالات أخرى، مثل الاقتصاد والتعليم والحياة اليومية.

(25) لا يُعدّ السودان استثناء في هذا السياق. فمحيطه العربي والأفريقي ذاخر بهذه التظاهرات التي جعلت التعامل مع العسكرة رهين بوابات الانقلاب العسكري. ولعل أبلغ مثال على ذلك، هو انفجار الاهتمام العربي بظاهرة العسكرة عقب توسع دراسات الانتقال الديمقراطي عربيًا، وتركيزها كثيرًا على العلاقة بين المؤسسة العسكرية والنخب المدنية والاحتجاجات الشعبية. ينظر على سبيل المثال: زهير حمدي، "انقلاب مصر: مقارنات تاريخية بتجارب أخرى"، سياسات عربية، العدد 4 (2013)، ص 66-77؛ مهدي مبروك، "أوهام الاستثناء التونسي: المجتمع المدني وامتحان تجربة الانتقال الديمقراطي"، عمران، مج 13، العدد 50 (خريف 2024)، ص 111-135.

(26) للمزيد حول مفهوم حالة الاستثناء، ينظر: جورجيو أغامبين، حالة الاستثناء: الإنسان الحرام (2،1)، ترجمة ناصر إسماعيل (القاهرة: دار الكتب المصرية، 2015).

(27) للمزيد، ينظر، مثلاً: محمد مكي الطاهر، "الأمننة في أزمة الحرب: الجيش السوداني والحرب الأخيرة"، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، 2024/5/6، شوهد في 2024/12/9، في: <https://acr.ps/1L9BPi8>

(28) ينظر على سبيل المثال: عبد الرحمن الفكي، تاريخ قوة دفاع السودان (الخرطوم: الدار السودانية، 1971).

(29) ينظر على سبيل المثال: بهاء الدين مكاوي محمد قبلي، "تناهي ظاهرة العسكرة في السودان: المظاهر والأسباب والتداعيات"، سياسات عربية، مج 12، العدد 71 (تشرين الثاني / نوفمبر 2024)، ص 75-91.

(30) للاطلاع على وجهة نظر من هذا القبيل، ينظر: عبد الرحمن خوجلي، الجيش والسياسة (الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2012).

يرجع حسن الحاج علي أحمد، في مقاربتة الانقلاب العسكري بوصفه عملية سياسية، تدخل العسكريين السودانيين في السلطة إلى الاستقطاب السياسي المتزامن مع تسييس المؤسسة العسكرية؛ بحيث أضحى العسكريون في السلطة امتداداً للمدنيين داخلها، وغدا الانقلاب العسكري استمراراً للعملية السياسية بطريقة أخرى<sup>(31)</sup>. بعين الباحث المتمرس، يوضح أحمد كيف لازم انخراط العسكريين في العمل السياسي المؤسسة العسكرية السودانية منذ نشأتها، فطلت المشاركة في الكفاح ضد الاستعمار بالتنسيق مع تنظيمات مدنية سودانية ومصرية نشاطاً رئيساً للضباط السودانيين في الجيش المصري آنذاك. وتتبع أحمد، في الآن نفسه، حيثيات تأسيس قوة دفاع السودان والكلية الحربية السودانية من لبنة هؤلاء الضباط أنفسهم، والذي جاء، بالنسبة إليه، وفق أسس وثقافة تنظيمية بريطانية تفصل بين المجالين السياسي والعسكري<sup>(32)</sup>.

يستدرجنا أحمد إلى أعتاب واقعتين تاريخيتين تكشفان عن تناقض مركزي، هما الأساس المهني لنواة الجيش السوداني، وانخراط الجنود السودانيين في النضال الوطني منذ تأسيس قوة دفاع السودان. استكمالاً لهذا الجهد، ثمة حاجة ملحة إلى أشكلة هاتين الواقعتين التاريخيتين تجاوزاً لمنزلق أخذ مهنية الجيش السوداني بصفتها مسلمة. فقد دفع التسليم بالمهنية والحياد، بصفتها سمتين تأسيسيتين للمؤسسة العسكرية السودانية، بعض الباحثين إلى قراءة الانقلاب العسكري الأول (انقلاب إبراهيم عبود عام 1964) بوصفه انحرافاً عن الأسس المهنية للجيش التي أرسى البريطانيون دعائمها<sup>(33)</sup>. في حين تكشف حيثيات تأسيس المؤسسة العسكرية السودانية، وانخراط الجنود السودانيين في النضال ضد الاستعمار، أنّ نزع الطابع السياسي عن الجيش السوداني، بغرض "مهنته"، استبطن دوافع كولونيالية هدفها قمع النزوع الوحدوي مع مصر لدى النخب السودانية الحديثة آنذاك<sup>(34)</sup>.

تترك هذه التفصيلة الباب مشرعاً إزاء إمكانيات أشكلة مقولة "مهنية الجيش السوداني واستقلالته عن السياسة"، عبر ردّها إلى تناقضات المرحلة الاستعمارية في السودان. يقترح عبد الوهاب الأفندي، مستلهماً من صموئيل هنتنغتون Samuel Huntington، أنّ تدخل الجيش في السياسة لا يعكس طبيعة المؤسسة العسكرية وبنيتها، بقدر ما يعكس خللاً مؤسسياً في بنية المجتمع، وتحديدًا فرط تسييسه. وفي هذا، يذهب الأفندي خطوة أبعد من فحص العلاقات المدنية - العسكرية في تناول إشكالية الجيش والسياسة. إلا أنّ مساره التحليلي يقف عند حدود إعادة تأطير نظرية الأمانة Securitization،

(31) حسن الحاج علي أحمد، "الانقلاب العسكري بمنزلة عملية سياسية: الجيش والسلطة في السودان"، سياسات عربية، مج 5، العدد 24 (كانون الثاني/يناير 2017)، ص 53.

(32) المرجع نفسه، ص 53-54.

(33) ينظر: الفكي.

(34) تعدّ ثورة 1924 لحظة مفصلية تتوّج المفاهيم الوحدوية بين السودان ومصر من ناحية، وتبرز بدايات استقلال تصور قومي سوداني عن مصر من ناحية أخرى. وللمزيد عن الحراك الوطني السوداني ومركزية المؤسسة العسكرية فيه، ينظر: يوشيكو كوريتا، علي عبد اللطيف وثورة 1924: بحث في مصادر الثورة السودانية، ترجمة مجدي النعيم، ط 2 (القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 2004).

بغرض إعمالها إطاراً نظرياً "لتفسير التدخلات العسكرية في الدول النامية والصناعية على حد سواء"<sup>(35)</sup>. خلافاً لذلك، تميل هذه الدراسة إلى ردّ إشكالية المدني - العسكري في السياق السوداني إلى ملابسات تشكّل الدولة الحديثة في السودان، وما استحضرتة الذهنية الكولونيالية عند إرسائها دعائم جيش وطني سوداني.

للعسكرة، إذًا، عمقٌ تاريخي يقترن بشروط تشكّل الدولة الحديثة ومؤسساتها في السودان، وبمركزية المؤسسة العسكرية في توجيه مسارات الفعل والنظم السياسية. فقد تمظهرت هذه المركزية، أو العطب البنيوي في تشكّل الدولة السودانية ومؤسساتها العسكرية، في احتلال النخب السياسية أحد موقعين: إمّا موقع التحالف مع النخب العسكرية وتوظيفها في تحقيق أهداف سياسية، وإمّا موقع مناهضتها الذي يكشف متبنيّه إزاء قمعها المحتمل. وفي ظل تبدّل مواقع القوى بين التنظيمات السياسية السودانية، وبفضل الثبات النسبي لموقع المؤسسة العسكرية بوصفها فاعلاً سياسياً، أضحت حصيلة هذا التاريخ هي مؤسّسة عسكرية أكثر تمرساً في إدارة الشأن السياسي من الأحزاب السودانية مجتمعة. وقد عضدت المؤسسة العسكرية موقعها هذا، بفضل إدارتها لأنشطة صناعية وتجارية مستقلة، جعلتها قوة كبرى ضمن المنظومة الاقتصادية السودانية.

لقد أسهمت النزاعات المسلحة المستمرة في السودان، وخاصة خلال فترة نظام الإنقاذ، في تحفيز تطورين مهمّين بالنسبة إلى مسار العسكرة في البلاد، يتمثلان في تضخم الإنفاق العسكري المتزامن مع توسع صلاحيات المؤسسة العسكرية بصفتها منظومة صناعية واقتصادية، وتوسيع نطاق "العمل العسكري" بالاستفادة من حالة الحرب بوصفها استثناءً يمنح حقاً سيادياً في إعادة تشكيل الفضاء - الزمان والذوات ضمن جغرافيتها السياسية. ففي دراسة رائدة حول العسكرة في السياق السوداني، استكشف نادر محمد اتجاهاتها ومحدداتها، موضحاً كيف اتخذ الإنفاق العسكري منحى تصاعدياً، بلغ أقصى مستوياته خلال فترة الإنقاذ، بفعل الحروب الأهلية في جنوب البلاد وغربها<sup>(36)</sup>. استمراراً لهذا المسار التضخمي للإنفاق العسكري، أصبح الإنفاق على الأمن والدفاع والشرطة هو الأعلى ضمن ميزانية الحكومة السودانية عام 2012، بنحو 62 في المئة<sup>(37)</sup>.

تكمن أهمية تتبّع هذا التوسع في الإيعاز بضرورة استصحاب مؤشرات تتجاوز تمظهر استيلاء الجيش على السلطة، عبر الانقلاب أو الصراع بين النخب المدنية والعسكرية، عند فحصنا لظاهرة العسكرة في السياق السوداني. فلم يكن الإنفاق العسكري المتزايد مؤشراً دالاً على تعاظم صلاحيات الجيش فحسب، بل حمل في طياته نُذُر هشاشة الدولة وتآكل سيادتها، بفعل الصراعات المسلحة بين

(35) عبد الوهاب الأفندي، "بين عسكرة السياسة وتمدين العسكرية: نحو إطار نظري لمعالجة إشكالية الدولة المتخذة"، في: الجيش والسياسة في مرحلة التحول الديمقراطي في الوطن العربي، محمد جمال باروت (محرر) (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)، ص 154-161.

(36) Nadir A. L. Mohammed, "Militarization in Sudan: Trends and Determinants," *Armed Forces & Society*, vol. 19, no. 1 (1993), pp. 411-432.

(37) Atta El-Battahani, "The Role of Local Resistance Committees in Sudan's Transitional Period," CMI-CHR. Michelsen Institute (2021), accessed on 14/12/2024, at: <https://acr.ps/1L9BPwX>

الحكومات المتعاقبة ومعارضيتها في الأطراف<sup>(38)</sup>. فعلى الرغم من أنّ هذه الحروب حُفّزت بالصراع على الموارد، وفي مقدمتها النفط، بصفته قناة تربط السودان باقتصاد رأسمالي عالمي، يحتل فيه موقع "أرض استخراج"، فإنها جسّدت دلائل تآكل السلطة بوصفها نمطاً من الشرعية يستند إلى قدر من الإجماع/ التواطؤ، أكثر من تعويله على أدوات القمع المميزة لعمل العنف<sup>(39)</sup>.

تمثّلت الآثار المباشرة لهذه الحروب الممتدة في إرهاب خزّانة الدولة، وإضعاف مؤسساتها، وانفصال جنوب السودان (2011)، وفقدانها لسيادتها على بعض المناطق داخلها، مثل أجزاء من جبال النوبة ودارفور، إلى جانب صناعة الأنظمة السياسية للمليشيات. فشهدت البلاد خلال فترة نظام الإنقاذ تضخّماً في حجم المليشيات المنشأة، من جانب النظام السياسي نفسه مثل "قوات الدفاع الشعبي"، أو من جانب تنظيمات معارضة مثل الأجنحة العسكرية لتنظيمات "الحركة الشعبية لتحرير السودان". وقد ظلّ توظيف التناقضات الاقتصادية - الإثنية بين مكونات المجتمعات المحلية في أطراف البلاد أحد أهم ميكانيزمات إدارة الصراع السياسي - العسكري على امتداد تاريخ البلاد<sup>(40)</sup>.

يدين ميلاد قوات الدعم السريع لهذا التاريخ من توظيف السلطة المركزية للتناقضات المحلية؛ حيث تطوّر من ميليشيات قبلية مساندة للجيش في حروبه غرب البلاد وجنوبها في مطلع الألفية، إلى قوة رسمية (عام 2013) تخوض حروب وكالة داخلية وخارجية، ومن ثم إلى ما يشبه جيشاً موازياً للجيش الوطني<sup>(41)</sup>. فخلال السنوات الأخيرة لنظام الإنقاذ، وعلى امتداد الفترة الانتقالية اللاحقة لإسقاطه<sup>(42)</sup>، استمرّ تضخّم الدعم السريع قوةً عسكرية واقتصادية، مستفيداً من امتيازات وجوده في قلب السلطة السياسية في المرحلة الانتقالية بوصفه أحد ضلعي المجلس العسكري الانتقالي. وتكاملت هذه الديناميكيات الداخلية مع عوامل خارجية تمثلت في شبكة علاقات اقتصاد - سياسي، تجاوزت حدود الدولة الوطنية، وتشكّل اليوم رافد الدعم السريع الرئيس في الحرب الحالية<sup>(43)</sup>.

(38) عن الحروب الأهلية في السودان وارتباطاتها بالصراع على الموارد، ينظر: محمد سليمان محمد، السودان: حروب الموارد والهوية، ط 3 (الخرطوم: دار عزة للنشر، 2010).

(39) للمزيد حول التمييز بين السلطة والعنف، ينظر: حنة أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس (بيروت: دار الساقي، 1992)، ص 38-42.

(40) لقراءة مادية لبروز الدعم السريع من تناقضات الرّيف والسلطة المركزية، ينظر: عبد الله علي إبراهيم، جنجويد وحاكورة: الماركسية وصدأ الرّيف (الخرطوم: دار المصورات للطباعة والنشر، 2022).

(41) للمزيد حول الشروط التاريخية لنشأة الدعم السريع، ينظر: المرجع نفسه، ص 78-135.

(42) حول التحالفات السياسية في هذه الفترة، ينظر: حسن الحاج علي أحمد، "فترة انتقالية مضطربة: تحولات التحالف الهجين في السودان"، عمران، مج 12، العدد 47 (شتاء 2024)، ص 7-32.

(43) للمزيد حول نشأة الدعم السريع وتوسعه فاعلاً اقتصادياً - سياسياً متجاوزاً حدود الدولة القطرية، ينظر: البدوي عبد القادر البدوي، "قوات الدعم السريع السودانية: من ميليشيات إلى قوة نظامية (2003-2018)"، تحليلات استراتيجية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021/8/17، شوهد في 2015/12/20، في: <https://acr.ps/1L9BPuB>

يُمثّل الدعم السريع، إذًا، تحديًا تحليليًا، لولاه لاكتفيتُ بقراءة ما يمارَس من عنف على المدنيين اليوم في السودان، في ضوء وضعية الاستثناء، وما تنتجه من حيوات عارية، وفق تنظير جورجيو أغامبين<sup>(44)</sup>؛ ذلك أنّ موقع المبادئ النازمة لتشكّل الدعم السريع وممارساته على الصعيد اليومي خارج نطاق الشرعية التي يستند إليها السيادي، في منح نفسه حق تعليق العمل بالدستور والقوانين الحامية للحريات، استجابةً لحالة استثناء. إذ يُمثّل الدعم السريع حالة مركّبة، يحتاج فهمها استصحاب المستويات المختلفة لعمل العسكرة؛ فوضع لبناته من حزمة من القبائل العربية في غرب السودان وجنوبه يعكس تاريخ تسليح النظم السياسية السودانية للقبائل وتوظيفها في توطيد سلطتها. أضف إلى ذلك أنّ أنشطته العابرة للحدود الوطنية، خاصة في محاربة الهجرة غير النظامية، توضح عسكرة الحدود ضمن نظام رأسمالي مُعرّق Racial Capitalism. فضلًا عن هذا، فإنّ مشاركته في حروب وكالة خارجية (مثل حرب اليمن) وتجنيد لمجموعات إثنية من غرب أفريقيا ودول الساحل يميّطان اللثام عن أزمة امتهان العمل العسكري سبيلًا لكسب العيش، في سياق عجز نموذج الدولة - الوطنية عن تقديم إجابات مقنعة لأزمات العديد من مواطنيها، هذا فضلًا عن أنّ أنماط الإغارة المتبّنة من جانب الدعم السريع، وانتهاكاته ضد المدنيين والمرافق العامة، تُجليان عمل العسكرة بصفته عنفًا مباشرًا يحوّل فضاءات الحياة اليومية إلى جغرافيا سياسية يُمارَس فيها العنف بوصفه حقًا سياديًا لا يمتّ إلى الدولة بصلة.

من هذه السمات، أستمّد مسوغات تركيزي على فحص ظاهرة العسكرة، مستندًا إلى بيانات سُجّلت في نطاقات جغرافية ارتسمت مع حدود سيطرة الدعم السريع عليها ملامح تآكل السيادة الوطنية للدولة السودانية. ففي اعتقادي، يجسّد التطور التاريخي للدعم السريع، بوصفه فاعلاً لا دوليًا Non-State Actor، تمظهرًا للعسكرة بوصفها عملية مركّبة تتجاوز مركزية الدولة الوطنية، ومؤسساتها العسكرية والأمنية، باعتبارها فاعلاً أوحد يُرسم مسارات العسكرة ومآلاتها. ويوضح تحوّل الدعم السريع، من أداة بيد الدولة إلى مقوِّض لها، كيف تلتهم الدولة نفسها بالعسكرة، بينما تسعى، في الوقت نفسه، إلى أن تغدو "طائرَ فينيقٍ" ينشد حياته من خلال تكثيفها.

إلى جانب الآثار المباشرة للتوسع العسكري وصناعة الميليشيات في الدولة، والتي كان الدعم السريع إحدى نتائجها، تُمثّل مؤشرات أخرى للعسكرة معبّرةً عن صيرورة التحولات الجارية على مستوى المفاهيم الحاكمة للعمل السياسي في السودان المعاصر. فلو تتبّعنا تعامل الحكومات مع اتفاقيات السلام العديدة التي مرّ بها البلد، وجدناها تجسّد اتفاقيات تقاسم سلطة وتسيويات سياسية، أكثر من كونها مساعي جادة لحل التناقضات المولّدة لهذه النزاعات المسلّحة. ومع تزايد المكاسب السياسية المحققة من المقاومة المسلحة للأنظمة، بدأنا نشهد، في العقدين الأخيرين، توسعًا في دائرة المؤنّين بجدوى المعارضة المسلحة سبيلًا لخدمة المشاريع السياسية. وعلى الرغم مما حملته انتفاضة كانون الأول/ ديسمبر 2018 من بوادر رد الاعتبار لقدرة الفعل السياسي غير المسلح على إحداث التغيير السياسي المنشود، فإنّ مآلاتها قد أفرزت تسارعًا في وتيرة العسكرة، بفضل تناقضات تجاوزت

(44) جورجيو أغامبين، المنبؤ: السلطة السيادية والحياة العارية، ترجمة عبد العزيز العيادي (بغداد/ كولونيا: منشورات الجمل، 2017).

قدرة القوى الثورية على حلحلتها. فالقمع المفرط للاحتجاجات أثناء حكم عمر البشير، وسيادة المقاربة الأمنية في تعامل حكومة انقلاب (تشرين الأول/ أكتوبر 2021) مع أشكال الاحتجاج الشعبي، سرّعا عملية التحوّل نحو تبني مركات معسكرة لحل الخلاف السياسي. وبدأنا نشهد تحولات على مستوى الخطاب والفعل السياسيين نحو أنماط أكثر حدّة، تتخذ من "العداء" و"استهداف الإقصاء" مبادئ حاكمة لحل الخلاف السياسي<sup>(45)</sup>.

وخلال الفترة التي أعقبت سقوط نظام الإنقاذ، تدافّع بعض السياسيين نحو تجذير أنفسهم في حركات مسلحة، بحثاً عن شرعية عسكرية يضمّنون بموجبها كرسياً أكبر على طاولة التسوية السياسية المرتقبة بين الحكومة الانتقالية والحركات المسلحة في دارفور. في المقابل، عملت هذه الحركات على بسط دائرة التجنيد الشعبي، رغبةً في توسيع قاعدة جنودها لتستخدمها أداةً ضغطٍ في المساومة، لنيل قسط أكبر من التسوية السياسية المرتقبة، والتي أنجزت فيما عُرف بـ "اتفاقية جوبا للسلام"<sup>(46)</sup>. فضلاً عن ذلك، أشارت ظواهر، مثل تزايد الوجود العسكري في المدن، وخاصة في العاصمة خلال السنوات الثلاث السابقة للحرب، وتزايد حالات العنف القبلي في بعض الأقاليم، إلى جانب واقعة إغلاق تنظيمات سياسية لطريق شرق السودان، إلى صيرورة من ضُمور الدولة المرافقة لحالة العسكرية، وإلى تنامي إدراك معيّن للدولة بوصفها غنيمة.

يخلص هذا السرد المتداخل إلى أنّ تاريخ السودان المضجّ بالانقلابات العسكرية، والحروب الأهلية، وتوسع المؤسسة العسكرية بوصفها قوة اقتصادية - سياسية، وتنامي الميليشيات بفعل التجنيد الإثني، والتحوّلات التي جرت على مفاهيم العمل السياسي وعلاقة المكونات السياسية والمسلحة مع الدولة، يعكس صيرورات ظلت تعتمل داخل بنية الدولة السودانية منذ استقلالها. تماشياً مع العمق التاريخي لهذه الصيرورات، أثرتُ التعامل مع حرب 15 نيسان/ أبريل باعتبارها امتداداً للظاهرة التي اخترتُ توصيفها بالعسكرة. ومع أنّ انزياح العنف فيما يُصنّف ضمن إبستمولوجيا الدولة الحديثة على أنه فضاء سلمي - مدني ظل عاملاً حاسماً في توصيف العسكرية، أو حتى إدراكها باعتبارها عرض علة تنخر جسد الاجتماع السياسي المعني، فإنني أفهم العسكرية، في سياق هذه الدراسة، بوصفها خيطاً تحليلياً يصل بين ما صنّفه سلافوي جيچيك على أنه مستويات ذاتية ورمزية ونظامية لعمل العنف<sup>(47)</sup>. وبناء عليه، تقترح الدراسة تعريفاً إجرائياً للعسكرة، على أنها صيرورة من إعادة تشكيل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، ضمن جغرافيا سياسية محددة، تبعاً لاعتبارات الممارسة

(45) شمل هذا التحول بعض القوى الشبابية التي قادت الحراك السلمي ضد نظام البشير، والتي تبّنت فيها مجموعات، مثل "ملوك الاشتباك" و"غاضبون بلا حدود"، أشكال تنظيم وتكتيكات عسكرية (من دون استعمال سلاح ناري) بهدف الحماية ضد قمع حكومة الانقلاب المفرط للاحتجاجات. حول نشأة هذه الكيانات، ينظر: أحمد فضل، "كيف نمت وتشكلت؟ 'غاضبون' و'ملوك الاشتباكات' مجموعات تتقدم صفوف مظاهرات السودان"، الجزيرة نت، 2022/2/8، شوهد في 2024/12/14، في: <https://acr.ps/1L9BPHv>

(46) زيد العلي، "اتفاق جوبا لسلام السودان: ملخص وتحليل"، *International Idea*، 2021/7/21، شوهد في 2024/12/14، في: <https://acr.ps/1L9BPHv>

(47) سلافوي جيچيك، العنف: تأملات في وجوه الستة، ترجمة فاضل جتكر (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

العسكرية بوصفها ممارسة سيادية. وتتجسد إعادة التشكيل تلك في إعادة توزيع الحق في تقرير الحياة والموت<sup>(48)</sup>، وتحديد الشكل الذي يتخذه كلٌّ منهما تبعاً للاعتبارات العسكرية، وفي مقدمتها ثنائية الصديق - العدو واتخاذ امتلاك أدوات القمع معياراً لشرعية العلاقات بين الأفراد. بهذا المعنى، تتماهى العسكرة مع الحرب، ليس بوصفها استثناءً، بل وضعياً تاريخية تتحول فيها الشروط المادية والافتراضات المفاهيمية للعسكرة إلى واقع مُشَرَّعٍ إزاء إمكانات تكثيفها وبلوغها خلاصاتها المنطقية. يتخذ القسم التالي الحياة اليومية مجالاً لفحص هذه الإمكانيات المُشرَّعة، في إثر حرب نيسان/ أبريل، وآثارها في هيئات الوجود والفعل اليوميين.

## ثانياً: خرطوم ما بعد 15 نيسان/ أبريل 2023: نسقية المشاشة ويوميّات العسكرة

### 1. عن النظر بعدسة اليومي

منذ نشأة سوسيولوجيا الحياة اليومية، تياراً نقدياً إزاء النظريات الكلية في السوسيولوجيا، حاولت رد الاعتبار للفاعلية الفردية والديناميكيات الصغرى للحياة الاجتماعية، عبر بوابة التفاعل اليومي بين الفاعلين. كان الافتراض المؤسس لهذا التيار، هو عدم قابلية بعض جوانب الحياة الاجتماعية للتأويل من داخل الحتمية التاريخية التي وسمت نظريات السوسيولوجيا الكبرى آنذاك. وقد لخصت مجموعة من الباحثين أزمة تلك النظريات الكبرى في مقاربتها الفرد، إمّا على أنه إناء مفرغ تدفعه رغبته الحديثة للانتماء إلى التماهي مع الجماعة، أو باختزاله في كونه نتاجاً لبنى خارجه، طبقية في الأساس، تجعل من أفعاله الفردية انعكاساً للموقع الطبقي للجماعة التي ينتمي إليها<sup>(49)</sup>. وفي إطار تأكيدهم لسبقية Contextualization الظاهرة الاجتماعية، بوصفها ركيزة تحليلية ضمن سوسيولوجيا الحياة اليومية، أكد هؤلاء الباحثون أهمية اتخاذ "دراسة الناس في سياقهم الطبيعي، وعالمهم اليومي الاجتماعي، وتفاعلاتهم اليومية، أساساً لفهم المجتمع"<sup>(50)</sup>. وبغض النظر عن الوضعية المضمرّة في تصوّرها المعلمي للحياة الاجتماعية، وعن التفاعلات الاجتماعية، بوصفها "أشياء" قابلة للعزل والدراسة "في سياقها الطبيعي"، استمرت سوسيولوجيا الحياة اليومية في التطور والتنوع ضمن الحقلين السوسيولوجي والأنثروبولوجي، إلى حد جعل تأطيرها ضمن توجّه نظري موحد أشدّ تعقيداً يوماً بعد آخر<sup>(51)</sup>.

(48) للمزيد حول ممارسات الإمامة في سياق الرأسمالية المتأخرة، ينظر:

Achille Mbembe, "Necropolitics," Libby Meintjes (trans.), *Public Culture*, vol. 15 (2003), pp. 11–40.

(49) Patricia A. Adler, Peter Adler & Andrea Fontana, "Everyday Life Sociology," *Annual Review of Sociology*, vol. 13 (1987), p. 218.

(50) Ibid., p. 219.

(51) للمزيد عن الحياة اليومية بوصفها مجالاً للممارسة والمناورة، ولا سيما من خلال مفهومي التكتيك والاستراتيجية، ينظر: ميشال دو سارتو، ابتكار الحياة اليومية: فنون الأداء العملي، ترجمة محمد شوقي الزين (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2011). وحول نقد الحياة اليومية وعلاقتها بالاغتراب وعلاقات السلطة، ينظر: هنري لوفيفر، "معرفة الحياة اليومية: الماركسية بوصفها معرفة نقدية بالحياة اليومية"، ترجمة ثائر ديب، أسطور، مج 3، العدد 5 (كانون الثاني/ يناير 2017)، ص 203–233.

إلى جانب المحاجة بوجود فاعليات صغرى غير قابلة للاختزال بنيويًا، بدت التصورات الأولى لسوسيولوجيا الحياة اليومية منطلقة، على غير هدى شमित، من حالة السلم النسبي، بوصفه الحيز الذي تأخذ فيه التفاعلات بين الفاعلين الاجتماعيين شكلها ومجراها. ولنا أن نؤوّل موقع الحرب ضمن هذا التصور باحتلاله مكان القطيعة في النسق اليومي، والمجرى "الاعتيادي" للأشياء؛ ذلك أن الحرب تسهم في خلخلة الشروط الحاكمة لهيئة الوجود وتدقّ الفعل اليوميّ، عبر فرضها إعادة ترسيم شاملة لطرائق ممارسة الحياة والموت، ضمن نطاق تنحيها على الأقل. بيد أن طرح العسكرية، بصفتها صيرورة تاريخية ليس لها بالضرورة نقطة بداية محددة، ومرآة للتوتر بين النسقي واليومي، يقتضي التعامل مع الحرب والسلم باعتبارهما تجربتين زمانيتين متداخلتين. وعن هذا، وضّح سامي هرمز أن أنماط تعامل اللبنانيين مع زمان "اللاحرب" ظلّت تستعير من أنماط الممارسات التي سادت فترات الحروب السابقة. فبالنسبة إليه، تفرض هذه الاستعارة على زمان السلم والحرب أن يتداخل ويذوبا في بعضهما مشكّلين متّصلاً يتحدى الخطيئة والتصنيف والمقابلة الثنائية. فأحد متعلّقات العيش في (والتفاعل مع) أزمنة "اللاحرب" أن تتخللها لحظات من الترقب والتفكير في أحداث أزمنة الحرب، تتضمن إعادة سرد تلك الأحداث والتفكير فيها انعكاسيًا. ويجعل ذلك ممارسات الماضي فاعلة على نحو غير مباشر في أزمنة الحاضر والمستقبل، من خلال تعويل الناس على ذاكرتهم وتوظيفها من أجل النجاة، إزاء ما يجري اليوم ويتوقّع غدًا<sup>(52)</sup>. وسيجد هذا التوتر بين التصنيفات الزمانية (ماضي، وحاضر، ومستقبل) لنفسه تعبيرات مخصوصة في حرب نيسان/ أبريل، عبر تجميعات تخلخل التمايز التقليدي بينها.

## 2. مانفستو العسكرية ومؤشراتها

صرّح قائد الجيش السوداني، عبد الفتاح البرهان، في مخاطبته مؤتمر الخدمة المدنية في نيسان/ أبريل 2025، قائلاً: "ما في مجد للساتك"<sup>(53)</sup> ثاني، المجد للبندقية دي بس". على مستوى الذات المتكلمة، لم يكن التصريح رسالة إلى القوى السياسية المدنية التي شكّلت جزءاً من الثورة، ثم انحازت إلى جانب الدعم السريع فحسب، بل إعلاناً بدخول البلاد مرحلة جديدة. أبرز ما يميز هذه المرحلة، كما يوحى التصريح، هو تغير الأسس التي تُبنى عليها شرعية العمل السياسي في البلاد، وإعادة ترسيم/ توزيع حقوق الفعل السياسي على مقياس فوهة البندقية. فشرعية الفعل السياسي المدني في مناطق سيطرة الجيش تُمنَح حاليًا لمن اصطفّ مع الجيش في هذه الحرب. وإذا تجاوزَ تلقينا للتصريح ذاته المتكلمة ورسائلها المبطنة إلى خصومها السياسيين، نجده ينطق بلسان وضعية نسقية تتكثف تمظهراتها وأثرها في إعادة ترتيب الحياة الاجتماعية في البلاد<sup>(54)</sup>.

(52) Sami Hermez, "'The War Is Going to Ignite': On the Anticipation of Violence in Lebanon," *Political and Legal Anthropology Review*, vol. 35, no. 2 (2012), p. 232.

(53) يُراد بـ "اللساتك" إطارات السيارات، التي اكتسبت قيمة رمزية خلال ثورة ديسمبر 2018؛ إذ استخدمها المحتجون في إغلاق الطرق وإقامة المتاريس، ولا سيما عبر إحراقها، بما أسهم في إعاقة حركة مركبات الأجهزة الأمنية والشرطة، وجعلها جزءاً من تكتيكات الاحتجاج اليومي خلال الثورة. وارتبطت أيضاً عبارة "المجد للساتك" بأحد قادة قوى الحرية والتغيير، والتي أصبحت من التكوينات الموقّعة التحالف مع الدعم السريع. للاستماع إلى خطاب البرهان كاملاً، ينظر: "رئيس مجلس السيادة يخاطب مؤتمر الخدمة المدنية في السودان"، وكالة السودان للأنباء، يوتيوب، 2025/4/29، شوهدي في 2025/12/25، في: <https://acr.ps/1L9F37m>

(54) بعض ما يعلن عنه التصريح هو أن تفسح "الشرعية الثورية" المستمدة من المشاركة في ثورة ديسمبر والتمسك بمبادئها المجال لشرعية "حرب الكرامة"، باعتبارها المكيال الذي توزع عبره المواقع والحقوق في السودان ما بعد حرب نيسان/ أبريل.

يُعاد عبر هذه الأجندة تشكيل ذاتيات<sup>(55)</sup> وأنماط فعل من يعيشون الحرب في السودان، ضمن نسقية تفرض شكلاً معيناً للوجود والفعل الاجتماعيين، وترسم لهيئات الفعل اليومي علاقة اشتقاقية مع حالة الحرب، بما هي إطار ممكن من إعادة تشكيل الواقع الاجتماعي وفق الاعتبارات الحديثة لممارسة السيادة. تندرج تحت هذا الإطار إعادة رسم حدود تعريف الذوات وفق منطق ثنائي (صديق/ عدو، وتهديد/ تحييد، ومقاومة/ تواطؤ)، وموضوعة النجاة الآنية بوصفها محرّكاً أساسياً للفعل اليومي، فضلاً عن سيادة حالة الترقب بما هي مظهر لوقع هذه النسقية على صعيد نفسي، وإحالة إلى رغبة الفكك منها في الوقت نفسه.

بدا لي واضحاً، خلال عملي على هذه الدراسة، أنّ الاستقطاب الحاد الذي يسم الحرب الجارية، وانقسام أغلبية المواطنين بين مؤيد للجيش أو الدعم السريع، يجعلان المدنيين منخرطين في أنشطة ذات صلة مباشرة بالشأن العسكري. وراوحت هذه الأنشطة بين الالتحاق المباشر بجبهات القتال، مروراً بالدعم المادي عبر التبرعات (كما في حالة مسيرات دعم القوات المسلحة ونصرتها)، وصولاً إلى تقديم معلومات تساعد في إنجاز عملية عسكرية (مثل تزويد المواطنين للجيش بإحداثيات دقيقة عن مواقع الدعم السريع أو العكس). وتُفهم أشكال الانخراط والتماهي هذه على مستوى اللغة اليومية المعبرة عن حالة الاستقطاب بين أطراف الصراع والمشكلة لها. ففي دراسة مهمة، تستكشف حواء الزين والشفاء الأمين صور التكامل بين المادي والخطابي في استدامة رحي الحرب، عبر تحليل إثنوغرافي رقمي لكيفية إعادة إنتاج حالات الانقسام بين الجيش والدعم السريع على منصّات التواصل الاجتماعي<sup>(56)</sup>؛ فأشكال التعبير اليومي في السودان اليوم لا تكشف فقط عن الحيّز المعتبر الذي يشغله النقاش حول مجريات المعارك ضمن المحادثات اليومية بين المدنيين، بل عن عمليات تخلّق متسارع لمعاجم يومية، تنهل من الاستعارات المتبادلة بين مجالات عسكرية وغير عسكرية، بالمعنى التقليدي لهذه الثنائية. وفي مثال آخر، نشرت منصة بيم ريبورتس تقريراً تتبع من خلاله انتشار استخدام مصطلح "الانسحاب التكتيكي" في أوساط المواطنين، للتعبير عن رسائل سياسية متعددة الدلالات، مثل نقل معلومة حول مجريات معركة معينة، أو إخفاء معلومة أخرى، أو التبرير لهزيمة، أو السخرية من تفسيرات طرف آخر لمجريات المعارك<sup>(57)</sup>.

(55) يحمل مفهوم الذاتية Subjectivity دلالات مركبة، تلقي الضوء على تدفق أفعال الأفراد عبر تجربة زمانية - مكانية مخصصة، العمق الأنطولوجي لهذه التجربة، وعمليات التشكيل المتبادلة بين البنى المجتمعية والأفعال الفردية. للمزيد عن المفهوم والنقاش النظري حوله ضمن حقل الأنثروبولوجيا، ينظر:

João Biehl, Byron Good & Arthur Kleinman (eds.), *Subjectivity: Ethnographic Investigations* (Berkeley: University of California Press, 2007).

(56) حواء الزين والشفاء الأمين، "سجل الكلمات والرصاص في السودان: تحليل إثنوغرافي رقمي لخطاب حرب الخامس عشر من نيسان/ أبريل"، عمران، مج 14، العدد 53 (صيف 2025)، ص 93-119.

(57) "الخداع العسكري في حرب السودان: كيف يربك تداول المدنيين للمصطلحات العسكرية فهم ما يجري في الميدان؟"، بيم ريبورتس، 2024/12/5، شوهد في 2024/12/10، في: <https://acr.ps/1L9BPcV>

تحكي فاطمة في سرد رحلة عودتها إلى منزلها في أحد أحياء أم درمان القديمة، بعد استعادة الجيش السيطرة عليها<sup>(58)</sup>، عن تعرّضها لمحاولة انتزاع خاتم ذهبي من يدها، في إحدى نقاط التفتيش التابعة للجيش. كانت حجة الجندي وقتها "أنّ الخاتم مسروق، لعدم امتلاكها إيصالاً يثبت ملكيتها له". تحمل نقاط التفتيش تناقضاً أصيلاً، مردّه طبيعتها المزدوجة، كونها فضاءات حماية وانتهاك في آن واحد. هي جدران حماية بالمنطق العسكري، تمنع حدوث اختراق من جانب "العدو". لكنها أيضاً فضاءات تقرير الولاء والتهديد عبر فحص الهوية، وامتحان السردية، واستكشاف الخلفيات المكانية والإثنية والسياسية، واستنطاق الوجه قبل اللسان. عقب عبور فاطمة هذا الفضاء "الطارئ" إلى آخر "مألوف"، وقفت عند تحولات المكان والسكان في الحي الذي غادرته قبل فترة وجيزة؛ فوصفت انتشار السلاح بين أبناء الحي وعند أخيها الأصغر وبائع الخضروات. واستوقفها ابتكار أطفال الحي لعبة ينقسمون فيها إلى فريقين (جيش، ودعم سريع) لخوض "معركة"، مستخدمين أسلحة "لعب" يصنعها حدّاد الحي. أمّا داخل البيت، فوجدت آذان أهلها مصغية لسردية واحدة مفادها جيشٌ يحميهم، وميليشيا تهدف إلى إبادتهم<sup>(59)</sup>.

تتيح هذه الملاحظات مدخلاً لفهم عمل العسكرية على صعيد تحويل الفعل والخطاب اليوميين للمواطنين، استجابةً للاعتبارات العسكرية للصراع الدائر. ويمكن تلخيص مظاهر عسكرية الحياة اليومية، التي عززتها الحرب، في أمور أهمها: إعادة تعريف ذوات الأفراد (مدنيين كانوا، أم عسكريين) ضمن أطر ثنائية، وفرض حالة من العنف المصاحبة لانتشار السلاح في أيدي المواطنين وتوسّع جبهات القتال، إضافة إلى إعادة تأطير الممارسات اليومية (مثل الأكل، والشرب، والمشي، واللعب، وغيرها)، وفق مآلات المعارك العسكرية، وتبعاً لذلك إعادة تشكيل العلاقة مع الفضاء - الزمان تبعاً لهذه الاعتبارات، فضلاً عن تحويل القسط الأكبر من التفاعلات والمحادثات اليومية إلى استجابة لحديث السلاح. وستحدد مخرجات هذا الحديث شكل الفضاء، وطرائق سكناه، والحركة فيه.

### 3. نسقية العسكرية: الدعم السريع نصير المهمشين وجلّادهم

قضيتُ الأيام الأولى للحرب في منزلنا بمنطقة اليوم الشرقية (الديم) وسط الخرطوم. كان هاجسنا الأكبر وقتها هو الأعيرة النارية والقذائف الطائشة التي أودت بحياة بعض سكان المنطقة. وأضحى الموت باعتباره أثراً جانبياً لتفشّي العنف حدثاً اعتيادياً، وبات النظر إلى السماء ممارسة يومية نراقب من خلالها مجريات المعارك الجوية، احتراساً وترفيهاً. وتجدرُ تبنيّنا هذا الشكل من الترفيه في حالة تعليق وسائل المعيشة والترفيه التقليدية عبر انقطاع الكهرباء وما فُرض علينا من حالة حظر التجوال،

(58) جميع الأسماء المستخدمة للإحالة إلى المشاركين في البحث هي أسماء مستعارة، وذلك بناءً على طلب المشاركين الذين آثروا إخفاء هويتهم بسبب الظروف التي أجريت فيها المقابلات. وقد أخفيتُ أو استبدلتُ بعض البيانات الخاصة بظروف إجراء المقابلات، مثل أسماء الأحياء الصغرى، وذلك لتعقيد إمكانية التعرف إلى هوية المشاركين في البحث. في المقابل، احتفظتُ بتواريخ إجراء المقابلات وأسماء الأحياء والمناطق الكبرى مثل أم درمان القديمة، واليوم الشرقية، وشعبات، على حالها.

(59) فاطمة، 28 عاماً، مقابلة شخصية، الدوحة، 2024/11/27.

وإلى محاولتنا استكشاف طرائق جديدة للتكيف مع إيقاع مغاير للزمن، تُشتق من مجريات العمل العسكري. شيئاً فشيئاً، بدأنا كغيرنا ممّن عايشوا قسماً من فترة الحرب في السودان باكتساب معرفة بنوع السلاح انطلافاً من صوت القذيفة التي أُطلقت منه، وبتنا قادرين على تخمين مواقع إطلاقه، وتحديد ما إذا كان يستدعي الاحتماء (بالانبطاح على الأرض مثلاً)، أم لا.

بعد يومين تقريباً من اندلاع الحرب، لاذ بعض جنود الدعم السريع بالحي، مخلفين أسلحتهم في الشوارع، وبين أفرع الأشجار، وداخل مقبرة الفاروق المتاخمة للحي. وقتها، استبدل الجنود الهاربون إلى الحي بزتهم العسكرية بأزياء مدنية. وهرع عددٌ من شباب الحي المدنيين إلى اغتنام ما خلفوه من أسلحة، مدفوعين، بعضهم، بنظرة تشاؤمية إلى مستقبل قد يستدعي الدفاع عن النفس، وبدافع الرغبة، لدى آخرين، في بيع الأسلحة بعد انتهاء حربٍ وعد الجيش بحسمها في غضون أسبوعين. ولم تمض أيام حتى فرض الدعم السريع سيطرته على منطقة الدير، ومعها ازداد خوارها من سكانها الذين بدؤوا في النزوح إلى مناطق أخرى داخل السودان أو اللجوء إلى دول مجاورة. وسرعان ما تحوّلت المنطقة إلى جغرافيا سياسية لفضاءٍ معسكر. هجرها معظم أهلها، خاصة الأطفال والنساء، إدراكاً لمركزية الاغتصاب بوصفه سلاح حرب تبنّى جُلّه الدعم السريع. وبنينا استنتاجاتنا هذه على سرديات سمعناها عن عنف الجنجويد وجرائمهم في حرب دارفور، والتي عايشنا قسماً سيراً منها إبان فضّ اعتصام القيادة العامة في حزيران/ يونيو 2019<sup>(60)</sup>. تحوّلت الدير، كغيرها من أحياء الخرطوم آنذاك، إلى حيزٍ يضجّ بالموت (المادي والاجتماعي) أكثر منه بالحياة، وتمارس في نطاقه أشكال مخصوصة من إدارة شؤون الحياة/ الموت<sup>(61)</sup>.

بعد أسبوع من اندلاع الحرب، مرّ على منزلنا أحد أبناء الحي (محمد) حاملاً حاسوبين جديدين. سألناه، فأخبرنا أنّ جنوداً من الدعم السريع فتحوا أحد المحال التجارية "الحاوي سوپر ماركت" على الطريق الرئيس (شارع محمد نجيب) ومبنى الإدارة المحلية للخرطوم، وأخذوا بعض المواد التموينية والأموال، ثم أبلغوا من شهد فعلهم من المواطنين بإمكانية الدخول وأخذ ما يريدون. خرج الشاب مسرعاً من بيتنا. ولم تمض ساعة حتى سمعنا نحيباً خارج المنزل. فخرجنا نستطلع الأمر، ورأينا طفلاً (بدا بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر) يحمله طفلان في العمر نفسه تقريباً، ومن ورائهما فتاة تبكيه بحرقة. بدا واضحاً أنّ الطفل قد فارق الحياة على إثر طلق ناري. لم نضطر إلى السؤال عن قصته، فقد عاد محمد لاهثاً هذه المرة، ليحجب عمّا استفهمت عنه وجوهنا، قائلاً: "كنا ماشين كمية من الناس على المحلية عشان نشيل حاجات، وفجأة ظهر واحد من الدعم السريع شكلو كان لافي بمشط في الحلّة. لمن شافنا اتخلع وقال لينا كلكم ارقدوا تحت،

(60) فضّ اعتصام القيادة العامة بتنسيقات بين الجيش والدعم السريع أمنية وسياسية أخرى، وشهد انتهاكات واسعة ومتنوعة الصور. ينظر: مزدلفة عثمان، "الذكرى الثالثة لفضّ اعتصام القيادة.. الحادثة التي توجع السودانيّين مرتين في العام"، الجزيرة نت، 2022/4/29، شوهد في 2024/12/14، في: <https://acr.ps/1L9BPML>

(61) حول "إدارة شؤون الموت"، ينظر: إسماعيل ناشف، صور موت الفلسطيني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

قمنا رقدنا. لكن الشافع قام خاف وعازي يقوم جاري قام العسكري طوالي ضربو طلقة.. والشايلنو ديل أخوانو شالوهو ولمن وصل لحدي جنب ملوك للأحذية كان خلاص أدى الروح"<sup>(62)</sup>.

كان الطفل القتل من دولة جنوب السودان، يسكن أهله بيتاً قيد الإنشاء في منطقة الدير، وتفصل بينه وبين المحل التجاري الذي كان ذاهباً لأخذ نصيبه منه حوالي 20-25 دقيقة مشياً. ويقع مبنى المحل والمحل التجاري الذي كسر بوابته الدعم السريع في حي العمارات، الذي تسكنه فئات ميسورة مقارنة بمعظم سكان المنطقة. سرعان ما استشرت الاستباحة لتشمل جميع المحال التجارية والمنازل، حتى داخل الدير، وتزايدت أعداد المشاركين في عمليات النهب. كان النمط السائد في البداية، والذي أصبح يسم ثقافة استباحة ممتلكات المواطنين في العاصمة، على النحو الآتي: يدخل جنود من قوات الدعم السريع إلى المنطقة، فيكسرون المحال ويقتمح بعضهم المنازل بحثاً عن السيارات والذهب والنقود، ثم يسمحون للمدنيين الراغبين في الدخول وأخذ ما تبقى. في الأثناء، وبينما تُقام نقاط ارتكاز للقوات عند المنافذ الاستراتيجية للمنطقة، يُعين لكل منطقة "مدير لشؤونها" يسمى "قائد المنطقة"، ويكون عادةً الجندي الأعلى رتبةً في الكتيبة العسكرية المسيطرة عليها.

توضح وضعية الدير ديناميكيتين رئيسيتين تتمثلان في عملية تشكيل فضاء معسكر، تُرسى فيه دعائم نسق اجتماعي قوامه السلطة المفروضة بقوة سلاح الدعم السريع، من ناحية، ومن ناحية أخرى، صناعة "فوضى وظيفية" تخدم عملية إعادة التشكيل هذه. وتندرج تحت هاتين الديناميكيتين عدة اعتبارات تكفل لهذا النسق من السلطة أداء وظيفته؛ فهي تتيح، أولاً، لجنود الدعم السريع انتزاع منافع وُعدوا بها ضمناً أو صراحةً، نظير مشاركتهم في القتال، وذلك عبر تخويلهم "اغتنام" ما يجدونه من سيارات وذهب ومال وحتى نساء. ثانياً، عدّ الدعم السريع، بوصفه قوة لا نظامية في الأساس، تفويض أشكال التنظيم القائمة تمهيداً ضرورياً يتيح له تشكيل فضاء المنطقة بما يلائم غايته منها. ونجد، ثالثاً، أنّ إفراغ المنطقة من جميع أشكال الضبط المؤسسي المرتبطة بالدولة (مثل الشرطة المجتمعية، والمحاكم، والمحليات) أتاح للدعم السريع إدارة أنشطة اقتصادية قرينة بوضعيات السيولة الأمنية، تشمل السرقة، ونهب الممتلكات، واحتكار وسائل الاتصال البديلة (مثل أجهزة "ستار لينك" عقب انهيار أنظمة الاتصالات الرسمية). ونجد، أخيراً، أنّ سيادة أشكال معينة من الفوضى أتاح للدعم السريع تقعيد وضعيته حامياً لنظام متوازن من الفوضى، ومؤطراً لحدودها بديلاً من دولة غائبة. ضمن هذا الترتيب، لا يجد من بقوا في مناطق سيطرة الدعم السريع سوى "للجوء" إلى قائد المنطقة "للإبلاغ عن تجاوزات فاقت الحدّ المسموح به" من السرقة والنهب، والذي غالباً ما يبدي تعاطفاً ويسعى إلى فرض هيبة اللادولة عبر إنزال العقاب بـ "المتجاوزين".

(62) محمد، مقابلة شخصية، اليوم الشرقية، الخرطوم، 2023/4/26. تردّد الاقتباسات المباشرة للمشاركين في المتن كما أفادوا بها باللهجة العامية السودانية، بينما أدرجها في الهامش بالفصحى لمن كان في حاجة إلى استيضاح بعض الكلمات غير المألوفة لديه: "كنا مجموعة من الناس نسير نحو مبنى المحلّة لأخذ ممتلكات، وفجأة ظهر أماننا جندي من الدعم السريع بدا أنه كان يُمشط المنطقة. تفاجأ برؤيتنا وأمرنا جميعاً بالانبطاح على الأرض، ففعلنا. لكن الطفل خاف وهم بالجري فأطلق عليه الجندي رصاصة. ومن يحملونه الآن هم إخوته، وكان قد فارق الحياة عندما وصلوا به إلى متجر ملوك للأحذية".

تبين هذه الديناميكيات عمليات إعادة ترتيب وظيفي للفضاء وللأنشطة الاجتماعية في نطاق سيطرة الدعم السريع، قوامها نزاع الطابع المؤسسي للدولة وإحلال آخر مكانه. وتُقرّض على الذات الموجودة ضمن هذا النطاق صور محددة من الوجود سمتها الهشاشة، وترسم حدود أفعالها بين متصل من التواطؤ والانكشاف إزاء العنف. فدعوة الناس للمشاركة في عمليات النهب ليست تخفُّفاً من المسؤولية إزاء مؤسسات الدولة التي يدّعي الدعم السريع تمثيلها الشرعي فحسب، بل هي أيضاً تعكس استثماراً في حالة الفاقة والغبن الناجمين عن التفاوتات الطبقيّة القائمة سلفاً بهدف إنتاج متواطئين، وتوظيف هذه الوضعية في تدعيم صورة الدعم السريع بوصفه "نصيراً للمهمشين"؛ ذلك أنّ هذا التواطؤ يتيح له فرض العقاب على "المتجاوزين"، متى اقتضت حاجته إلى خلق مسافة تفصل بين مؤسسته وعمليات النهب المقترفة.

في تحليل إلزا دورلين للعلاقة بين الشرطة المحلية وفتة الرجال السود في الولايات المتحدة الأمريكية، نجد مدخلاً تحليلياً نستعين به لفهم تقنيات إنزال العقاب، كما شاهدنا في حالة قتل الصبي المُشار إليها. توضح دورلين أنّ تقنيات العنف التي يستخدمها نظام شرطي منحاز عرقياً، تستهدف "قدرة الضحية على الفعل" ودافعها الغريزي للمقاومة، لتوظفهما في قمع هذه القدرة في حد ذاتها<sup>(63)</sup>. وقد بدا ذلك الاستهداف للقدرة ولردود الأفعال الغريزية حاضراً بكثافة، ضمن منظومة التواطؤ التي نتناولها، والتي أنتجت طفلاً خرج للمشاركة في عمليات سرقة ممتلكات الآخرين، وهمّ بالهروب بدافع الخوف عند مواجهته لجندي من الدعم السريع، فوجد نفسه مُردى برصاصة الجندي. لكن، ثمة خصوصية لما تتعامل معه في هذا السياق؛ إذ يتجاوز الاستهداف الفعل القسدي للذوات المنخرطة في الحدث، ليشكّل امتداداً للبنى المادية والحسية ضمن سياق معسكر. فمنظومة التواطؤ المنتجة، استهدفت هنا قدرة الطفل على الفعل في مرحلتين: الأولى عند رغبته في تأمين مكسب أو قوت مستفيداً من حالة السيولة الأمنية، لتجعله موضوعاً محتملاً للعنف "الشرعي" بوصفه "مجرماً". والثانية باستهدافها ردة فعله (هي الهروب) عند استشعار خطرٍ محددٍ، وإعادة تعريف هذا الفعل بوصفه تهديداً أو عصياناً لأوامر ممثلٍ لسلطة شرعية ماثلة أمامه. وتتنوع مآلات هذه الحالة النسقية وفق شروط عديدة (مثل اختلاف الأماكن، والأشخاص، والموارد الموجودة على المحك)، لكنّ مبدأها الناظم يظلّ قيد الاشتغال، كما ستوضح القصة التالية.

#### 4. لمن البيت اليوم؟ أبواب مشرعة على الهشاشة

بعد أن هجر خباب منزله في منطقة شمبات شرقي الخرطوم عدة أشهر، اضطر إلى العودة إليه رفقة أحد أصدقائه (مازن)، لأخذ وثيقة إثبات شخصية (جواز سفره) كان قد خلّفها وراءه. وما إن اقترب الشبان من المنزل حتى أبصرا بابه مفتوحاً على مصراعيه، وفي داخله سيارة دفع رباعي ومجموعة من جنود الدعم السريع. فغيّرا وجهتهما صوب منزل محجوب، أحد أقارب خباب الذي يسكن في الحي المجاور، متنازليين عن فكرة أخذ الوثائق. وبعد أن حكيا له ما حدث، ألحّ محجوب في العودة

(63) ينظر: إلزا دورلين، فلسفة العنف، ترجمة جلال بدلة (بيروت: دار الساقي، 2021).

لاسترجاعها. في البداية، رفض خباب ومازن الفكرة لخطورتها. ظلّ محجوب، أثناء روايته للمحادثة، يفكر انعكاسيًا فيما دار وقتها، فأثنى على قرار صاحبيه بالتنازل عن الوثيقة. أمّا هو، فوصف نفسه بـ "المغفل"، مُرجعًا تهوره إلى عجزه حينها عن استيعاب واقع أنّ هناك من استباح بيتهم ليحول دونهم، وهم "ملأك هذا البيت"، ودون الدخول إليه قائلًا: "كان الموضوع ماكل معاي جنبه يعني ناس يجوك جوة البيت"، ثم سكت خلال ثانية، قبل أن يضيف: "حقك أو انت المالك ما تقدر تخش جوة"<sup>(64)</sup>.

حُسم النقاش بين هؤلاء الشباب بأن يذهب محجوب وخباب إلى البيت لاستعادة الأوراق، على أن ترقيهما عينا مازن من بعيد، تحسبًا. وأعدّا العدة، كما حدّثني، للرحلة، فتوضّأ، وصلّى ركعتين، واستبدل محجوب قميصه بآخر مهترئ خشيّة أن "يعجب" قميصه أحد الجنود، وحمل بطاقته الوظيفية ليجنّب نفسه عناء إثبات أنه غير "عسكري". وحدّثني عن مشيهما مسافة نصف ساعة تقريبًا إلى بيت خباب، لم يعكّر صفوه فيها سوى صوت خباب الذي كان يلحّ عليه بالعدول عن الأمر. تكسّر صوت خباب المتردد أمام إصرار محجوب، ووصلا إلى المنزل ليجدها مشرّعًا كما هو، تجلس قبالة على الجانب الآخر من الطريق بائعة شاي يتحلق حولها بعض جنود الدعم السريع لشراء الشاي والقهوة، وبقية رفاقهم داخل المنزل. يقول محجوب: "لقيتهم قاعدين جنب ست الشاي ماخدين راحتهم للآخر. وفي واحد طالع من البيت كأنو طالع من بيت أبوه، يتمغى كدة صاحي من النوم يادووب"<sup>(65)</sup>. عندما همّا بالدخول إلى المنزل، أقدم محجوب بخطوته الأولى متمعّنًا في وجوه الجنود الموجودين لانتقاء أكثرهم "أمنًا" للحديث إليه، إلى أن وجد ضالّته في أحدهم. فبادأه بالسلام وأخبره أن هذا منزلهم، قصدوه لأخذ بعض جوازات السفر والوثائق الطبية الخاصة بوالدهم. كان محجوب حريصًا في انتقاء الطريقة التي يوضح بها هذا الطلب بالقول "طالبكم في مساعدة". رد الجندي السلام ولم يزد عن سؤال واحد: "ده بيتكم؟"<sup>(66)</sup>. ردّ محجوب: "أيوه ده بيتنا، ودي بطاقتي عشان ما تقولوا أنا عسكري ولا اتجندت قبل كدة"<sup>(67)</sup>. فأخذ الجندي البطاقة وتمعّن فيها وفي وجه محجوب، ثم أكّد عدم ممانعته دخولهم: "اتفضلوا"، وأرسل معهم جنديًا وصفه محجوب بـ "ولد صغير".

يجسّد هذا المقطع من القصة جوانب من تحولات العلاقة بالمكان في سياق الحرب، تتلخص في حالة من فقدان المكان نتيجة تفشّي العنف من جهة، والسعي إلى استعادته، أو إلى استعادة الحق في استعماله مؤقتًا على الأقل، بوصف ذلك فعلاً من أفعال المقاومة، من جهة أخرى. ففي حين أجبر اندلاع الصراع المسلح خبابًا وأهله على هجر منزلهم وترك كل شيء وراءهم خوفًا من التعرّض للاعتداء أو الموت (من جرّاء الاستهداف المباشر أو بوصفها "أضرارًا جانبية")، تحوّل المنزل إلى ثكنة عسكرية لجنود الدعم السريع. ها هم اليوم مُكرّهون على الاستئذان قبل ولوجه، ولا يحق له

(64) محجوب، مقابلة عبر واتساب، 2024/5/23. "كان الأمر يحزّ في نفسي. أن يأتي أناس إلى منزلك وأنت المالك لا تقدر على الدخول إليه".

(65) المرجع نفسه. "وجدتهم جالسين قرب بائعة الشاي بأريحية. وكان أحدهم خارجًا من المنزل كأنه ملك والده، يتمطّي كأنما استيقظ من النوم لتوّه".

(66) "هل هذا بيتكم؟".

(67) "نعم هذا منزلنا، وها هي بطاقة هويتي حتى لا تعتقدوا أنني عسكري أو مجنّد سابق".

المطالبة إلا بما لا يُعدُّ ذا قيمة بالنسبة إلى من يقطنه آنياً. لمن تؤول ملكية البيت؟، سؤال يعبر عن شدة تأزم أوضاعهم، لكن ليس لصديقنا رفاهية التفكير فيه. فقد أضحي الدخول إلى المنزل رهاناً وجودياً، لم يتجاوز إلا بتذويت تمثّل معيّن عن الذات، سمته التماهي وإبراز الخضوع. ففي وضعية يحتلان فيها موقعاً أدنى ضمن هرم القوة، عُدّ تقديم صورة عن ذاتيهما بوصفهما خاضعتين طيّعتين وغير مهذبتين للجنود الماثلين أمامهما شرطاً للنجاة. فالمواقع تتحدد بصورة اشتقاقية من توزيع القوة العسكرية، ممثلة في امتلاك السلاح والغلبة العددية، والتدريب العسكري اللازم. وعلى كل فاعل أن يتبوأ موقعه في مثل هذا الموقف تبعاً لعلاقته بالسلاح، إمّا مقررّاً لشأن سياديّ يتعلق بالحياة والموت، وإمّا موضوعاً لممارسة هذا الحق.

أدرك صاحبانا ما يستتبع وجودهما ضمن نطاق الحرب، أي أن يغدو جسدهما مشرّعين إزاء ممارسات السيادة المتبعثرة ضمن الجغرافيا السياسية للعنف. لذلك، لم يجد محبوب بُدّاً من تقديم صورة عن ذاته تبدو فيها في أقصى حالات ضعفها، بغرض استخدامها سلاحاً للمقاومة. إن إفراغ محبوب جسده مما اعتبره مظاهر قوة و"اختلاف"، بدءاً من اختياره القميص المهترئ ليبدو مُعَدِّماً، حماية لنفسه من السرقة، ومحاولته تقليد لهجة الجنود أمامهم، وصولاً إلى أفعاله البسيطة، مثل طريقة شرب الماء، انتظمت جميعها في توظيف الضعف أداةً لتجسير المسافة بينه وبين الآخر الماثل أمامه، ومثّلت بالنسبة إليه شرطاً لبلوغ مساعهما؛ إذ يؤكد قائلاً: "أثناء ما بتكلم معاهم كنت بمطمط في الكلام عشان يحسوا إننا قريب منهم.. أدوني جردل بتاع موية شربتو كلو، ما عشان أنا عطشان، لكن عشان يقولوا الناس ديل مساكين"<sup>(68)</sup>.

ردد محبوب، خلال حديثه إليّ، أنه لم تساوره لحظة شك في أن جنود الدعم السريع سيقتلونه "وسيحسرون فيه طلبة"<sup>(69)</sup>. فالطلقة (العيار الناري أو الرصاصة) تكتسب في هذا السياق قيمة أعلى من حياة لم تنل، بعبارات جوديث بتلر، حقّ التعريف بها بوصفها حياة كاملة، ومن ثمّ لا يمكن أن تُخسر ويُنتخب عليها<sup>(70)</sup>، من منظور من يسلبها. تستمد الرصاصة قيمتها الثمينة هذه من مصدرين: علاقتها بالجسد الذي تواجهه (جسد محبوب)، والذي يحمل قيمة أقل من جسد الجندي الذي غدا السلاح امتداداً له، ومن أداتيتها بوصفها تقنية تُمارَس عبرها السلطة على جسد الآخر، بالقتل أو الإصابة. يمكن إرجاع هذا البعد من علاقة محبوب ورفيقه بجنود الدعم السريع الذين قابلوهما إلى سياق المواجهة الجارية بين الجيش والدعم السريع، التي تدفع إلى تصنيف جميع الفاعلين، عسكريين كانوا أو مدنيين، وفق منطق قائم على ثنائية صديق/عدو، وهو منطق يجعل قتل "العدو" شرطاً للنجاة. إلا أنّ ثمة أبعاداً أخرى لعلاقة محبوب يستدعي فهمها عدم الربط المباشر بين العنف المُمارَس عليه وعلى رفيقه وغاية "النجاة". فبعد أن بدا الجنود مقتنعين بسردية محبوب، وأنهم ليسوا "أعداء"، وإنما جاؤوا لاسترجاع

(68) محبوب. "أثناء كلامي معهم، كنت أمدُّ في الحديث لأقمع اختلافي عنهم. قدموا لي دلو ماء فشربته كله، لا لعطش، بل لإيهامهم بأننا مساكين".

(69) المرجع نفسه.

(70) Judith Butler, *Frames of War: When Is Life Grievable?* (London: Verso, 2009).

مستنداتهم، طلبوا منه مساعدتهم في العثور على مفتاح سيارة موجودة في المنزل، وفكّ شيفرة هاتف مسروق. لذلك يبدو مبدأ الإقصاء، بوصفه تحييداً لتهديد مائل، والمُضمّر في منطق المواجهة الثنائية بين الجيوش، قاصراً عن فهم الصورة الكاملة للديناميكيات الصغرى لممارسة السيادة على الحياة والموت في هذا الموقف. ويؤكد ذلك واقع أنه أُطلق سراحهما في النهاية؛ لأنّ أعلى الجنود رتبةً أُعجب بمحجوب وبطريقة حديثه التي عكست "ثباتاً أمام قوة السلاح"، فخاطبه قائد "المتحرّك" قائلاً<sup>(71)</sup>: "أنا اتكيفت ليك.. وحأسميك الرجل.. بس صلح لي تلفوني ده وأمشي"<sup>(72)</sup>.

تبدو نجاة محجوب ورفيقه، أول وهلة، نتيجة مباشرة لقرار شخصي اتخذته الجندي الأعلى رتبةً، وهي قراءة قد تتماشى مع إشارة ستائيس كاليباس إلى أنّ الديناميكيات الصغرى لممارسة العنف في الحروب الأهلية كثيراً ما تنفصل عن الأهداف الكبرى التي اندلع الصراع من أجلها<sup>(73)</sup>. ولعل في اعتراف القائد برجولة محجوب وإطلاق سراحه إثر ذلك، تأكيداً لتجذّر هذه الديناميكيات في المنظومة الثقافية للمجتمع المعنيّ، وما تنتجه من تمثّلات الذكورة والأنوثة. وعلى غرار إنلوي، التي أشارت إلى أنّ المفاهيم الذكورية تقبع في صلب المبادئ المؤسسة للعسكرة<sup>(74)</sup>، نجد أنفسنا أمام إعادة إنتاج لثنائيات الخوف والشجاعة، والقوة والضعف، بوصفها مفاهيم متقابلة تعبّر عن التناظر/التناقض بين الأنثوي والذكوري. بيد أنّ إعادة إنتاج مفاهيم مثل "الرجولة" في هذا السياق تجري على نحوٍ مخصوص؛ فالاعتراف بـ "الرجولة" الذي حازه محجوب لم يتحقق عبر تمثّله لما يتماشى مع نموذج الذكورة السائد (بإظهار "الثبات"، أو الشجاعة) فحسب، بل استدعى كذلك تبنيّه سمات (مثل الضعف، والامثال) تُعدّ نقيضاً لنموذج "الرجولة" السائد في المجتمعات الأبوية. فضلاً عن أنّ "رجولة" محجوب تبرز، بوصفها قيمة مُسبّغة من الخارج في الأساس؛ إذ يسبغها "آخر" (قائد عسكري) يرى في نفسه نموذجاً أرسخ للرجولة، ويوزّع صكوكها على من يعتبرهم مستوفين لشروطها (مثل محجوب). ما يميز هذه الوضعية هو أنّ من يطرح نفسه نموذجاً أعلى للرجولة قد استمدّ سلطته في منحها من علاقته المباشرة بقوة السلاح، وما يستتبع ذلك من امتلاك القدرة على إنزال الموت أو وهب الحياة. بهذا المعنى، تتيح السياقات المعسكرة إمكانيات إعادة إنتاج نماذج الرجولة السائدة في الأنظمة الأبوية، لا بصورة آلية، بل عبر إعادة تركيب هذه النماذج على نحوٍ يكشف طابعها العرضي والتاريخي.

ثمة عنصر آخر مكمل لنجاة محجوب، يرتبط بالهيئة التي اتخذتها فاعليته في هذا السياق، لينتقل من حالة الموت الوشيك والوقوع تحت تهديد بالقتل إلى حياة الإعجاب والظفر بإطلاق سراحه.

(71) في أكثر من مرة، عبّر محجوب لي عن استغرابه من "الثبات" الذي "نزل عليه" أثناء هذا الموقف. واستقرأ محجوب قرينة هذا الثبات في نبرته الواثقة وسرديته المتسقة أثناء حديثه للجنود. وكأنّما شكّل، عبر صوته الواثق "غير المرتجف"، حجاً بين قلقٍ داخليٍّ من احتمالية موتٍ وشيكٍ وأدائية تنفي هذا التوتر الداخلي عبر تقديم صورة مناقضة عن حالته الداخلية. ينظر: محجوب.

(72) "أنا أعجبت بك، وسأسميك الرجل. فقط أصلح لي هاتفي واذهب".

(73) ستائيس كاليباس، منطق العنف في الحروب الأهلية، ترجمة عبيدة عامر (الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2021)، ص 17-22.

(74) Enloe, p. 11.

ولينجو من وضعيته على حافة الموت، حشد صنوفاً من المهارات السردية، مستعيناً بذاكرته، ومعرفته بالتاريخ السياسي السوداني. فبدأ يحكي للقائد قصة السودان منذ استقلاله، مروراً بالحكومات العسكرية والوطنية المتعاقبة، وانتهاءً بلحظة الحرب الحالية. وخلال هذا السرد، وقف على محاسن كل حقبة ومساوئها، وعلى سمات بعض الشخصيات الرئيسة فيها (إسماعيل الأزهرى، وإبراهيم عبود، والصادق المهدي، وعمر البشير، وعبد الفتاح البرهان، ومحمد حمدان دقلو). ومن بين هذه الشخصيات، برز قائد الدعم السريع بوصفه استثناءً؛ إذ لم يقف محجوب إلا عند محاسنه.

تعكس عملية إعادة تشكيل تاريخ المجال السياسي السوداني وسرده على لسان محجوب، ليغدو وظيفياً ضمن مشروع نجاة آنية، وجهاً آخر لعملية سبق لهرمز أن لاحظ اشتغالها في السياق اللبناني. ويتعلق الأمر باستعمال ذاكرة السلم من أجل النجاة في زمن الحرب<sup>(75)</sup>. فحينما أقدم محجوب على تمثيل علاقة محددة بهذا التاريخ وبالفاعلين فيه، وإعادة بنائها في سرده، أنجز تركيباً جديداً للتاريخ السوداني، قدّم فيه "حميدتي"، قائد الدعم السريع بوصفه بطلاً قومياً، في مقابل شيطنته الكاملة لعناصر الجيش السوداني، وخاصة قائدهم البرهان. واختتم محجوب قصته بإقرار أن مشكلته الرئيسة مع "العساكر" - وهو تعبير يستخدمه جنود الدعم السريع أحياناً لوصف الجيش وكل من حمل سلاحاً أو تدرّب على حمله من الموالين للجيش - هي أنهم بدؤوا بقتل المواطنين، من دون أن يفوته التشديد على تفهمه لتعامل جنود الدعم السريع الفظّ معهما، قائلاً: "أنا ما زعلان منكم، ومن العملو معنا، لأنو ده إجراء أمني. شنو عرفكم إنو ده بيتنا أصلاً. لكن ما تكتلوننا، لأنكم ما بتكتلوا المواطن"<sup>(76)</sup>. لهذا السرد التاريخي وظيفة تقف، زمانياً ودلائياً، عند حدود ضمان نجاة صاحبين من هذا الموقف. وقد عضد محجوب هذا السرد عبر إبداء استعداده الكامل لمساعدة الجندي الذي أمامه في فكّ شيفرة هاتف، حَمَّن عند حمله أنه ملك شخص آخر، لكنّه تظاهر بالعمل على فكّ شيفرته، إلى حين نجاحه في إقناع القائد بإطلاق سراحه ورفيقه.

ثمّة نقاط التقاء بين وضعية محجوب وحالة السكان الأصليين خلال الاستعمار الإسباني، التي علّق عليها ميشيل دو سارتو، مركزاً على كيفية أدائهم الطقوس والشعائر والإجراءات القانونية المفروضة عليهم بطريقتهم الخاصة، مستندين إلى مرجعيات من خارج المنظومة الاستعمارية التي فُرضت عليهم. فقد رأى أن طرائق استعمالهم للنظام المهيمن مثلت تلاعباً بسلطته، فظلوا "آخرين" داخل هذا النظام، قادرين على تقويضه من الداخل، من دون التمكن من الفكّ منه كلياً<sup>(77)</sup>. وعلى غرار هؤلاء السكان الأصليين، ركن محجوب إلى استعمال الخطاب الرسمي للدعم السريع، ومفاده أنهم "جاؤوا لنصرة المواطن المستضعف وجلب الديمقراطية"، وإلى التظاهر بمساعدة الجندي في فكّ شيفرة الهاتف، ليقنع الجندي الأعلى رتبةً بإخلاء سبيله. وبلغه دو سارتو، يمكن القول إنّ محجوب

(75) Hermez, p. 232.

(76) "لستُ عاتباً عليكم لتعاملكم معنا، فهو إجراء أمني، وليس ثمّة ما يثبت لكم أن البيت ملكنا. لكن ما أرجوه فقط هو أن لا تقتلوننا، فأنتم لا تقتلون المواطنين من دون سبب".

(77) دو سارتو، ص 23-24.

أعاد، في هذا الموقف، تعريف الصور والتمثيلات والمعاني المرتبطة بفعل التواطؤ أو "التعاون" مع الدعم السريع، ولم يوظفها تقنية لإعادة تملك المكان فحسب<sup>(78)</sup>، بل ووظفها أيضاً فعلاً ضرورياً لاستعادة الذات والسيادة عليها.

ينبغي، إذًا، موقعة سلوك محجوب ضمن سياق تبلغ فيه صيرورة العسكرية، بما هي تحويل ما لم يكن شأنًا عسكريًا في الأصل (مثل المشي في شوارع الحي، والدخول إلى البيت، والمحادثة اليومية بين الأهل والأصدقاء) إلى قضية عسكرية ترتبط بالسلاح، والتهديد، والإقصاء والصراع على السلطة، نهاياتها المنطقية. فمنظومة الحرب التي تختزل جميع تعقيدات الوجود الاجتماعي إلى منطلق ثنائي جعلت فعل دخول صاحب البيت إلى بيته رهانًا وجويًا، وفرضت على محجوب ورفيقه، على غرار مدنيين غيرهما، أشكالًا طارئة من الفعل ومن العلاقة بالذات والآخر. وعلى الرغم مما توفره قصة محجوب من مدخل لفهم جوانب من عسكرة الحياة اليومية على مستوى التفاعل البيئاتي، فإن ثمة مظهرات أخرى لعمل العسكرية، وصورًا لمقاومتها، يستدعي فهمها استحضار أمثلة إضافية.

## 5. أنماط التضامن في سياق الهشاشة

لنعد مرةً أخرى إلى الديم، حيث يتبلور شكلٌ آخر من أشكال المقاومة لعمليات الموت الاجتماعي التي يفرضها العيش في سياق معسكر. منذ اندلاع الحرب، بدأ الناس في مختلف بقاع السودان، وفي مقدمتهم لجان المقاومة وغرف الطوارئ، في إنشاء غرف الاستجابة الطارئة لدعم المدنيين، وتدشين مطابخ شعبية تُعرف بـ "التكاي". وتضاعف عدد التكايا في العاصمة الخرطوم، تزامنًا مع أزمات الغذاء والأمن التي فجّرتها الحرب، حيث شلّت حركة معظم الأسواق، خاصة في مناطق العمليات العسكرية، وبات الخروج إلى أسواق خارجية مسألة حياة أو موت. ويتشكل قوام التكايا السائد من مطبخ تقليدي ومجموعة من المتطوعات والمتطوعين، يتولّون جمع التبرعات وإعداد الأطعمة التي تُوزّع بحصص لا تهدف إلى الإشباع، بقدر ما تهدف إلى اتقاء الموت جوعًا. وتنوّعت التكايا والمطابخ الشعبية وغرف الطوارئ، مجسّدةً أحد أشكال التضامن خلال الحرب، وعكست وجهًا من التحولات الجارية في أسس تشكّل العلاقات الاجتماعية<sup>(79)</sup>.

تتمظهر في الديم، التي لم يذع فيها صيت تكية بعينها، صورٌ مشابهة لحالة النجاة - مقاومة. وخلال العامين الأوّلين من الحرب، تجمّع نفرٌ لم يتجاوز عشرة أشخاص، اختاروا البقاء، أو اختارهم البقاء، في أحد منازل المنطقة. وراحت أعمارهم بين العشرين والستين عامًا، وتباينت مستوياتهم التعليمية بين غير المتمدرسين والجامعيين. يبدأ يومهم، كما أفادني أحدهم، على النحو الآتي: يستيقظ غالبيتهم ما بين الخامسة والسابعة صباحًا، ويصلّون جماعة في المنزل، ثم يخرج الشباب منهم في جولة تفقدية يَمرون خلالها على بيوت الحي لحصر ما نُهب منها خلال الليلة الماضية. ويتفقّدون كل بيت على

(78) المرجع نفسه، ص 24-25.

(79) تمثّل غرف الطوارئ إلى جانب ذلك نموذجًا لإدارة الشأن العام في سياق تتخفف/ تنغيب فيه الدولة عن أداء مسؤولياتها إزاء المواطنين.

حدة، ثم يغلقون أبواب المنازل المنهوبة. ولم يكن التعرف إلى البيوت المنهوبة مهمةً صعبةً، فترك أبوابها مشرعةً بعد نهبها هو النمط السائد في تعامل من امتنوا السرقة والنهب خلال الحرب. وبعد حصر هذه البيوت، يعودون إلى البيت الذي يتجمعون فيه، أو يعود كل منهم إلى بيته، ويتواصلون مع أصحاب البيوت التي نُهبَت لإبلاغهم بما حدث. واستمرت جولاتهم الصباحية مدة عام ونصف العام تقريباً، منذ اندلاع الحرب، ثم توقفت؛ لأنه لم يعد هناك ما يمكن نهبه، أو كما حدّثني أحدهم: "الوضع بقى أحسن لأنو ما فضل شي زاتو.. إلا يشيلو السقف بعد ده" (80).

قياساً على ما قاسوه من اقتحامات شبه يومية طوال الثمانية عشر شهراً الأولى للحرب، قلّ تعرّض هذه المجموعة للمضايقات، بعد نفاذ ما يُعدّ ثميناً بالنسبة إلى الدعم السريع، ومن شاركهم في سرقة الممتلكات. ولم يعد هناك "عبء ملكية". لكن ظلّ وجودهم في حد ذاته خطراً كافياً، يستدعي منهم التجمع في منزل واحد والاحتماء بعضهم ببعض. ويتبادلون طهي الطعام، ويؤدون صلواتهم جماعةً، ويتلون أذكّاراً صوفية الطابع، ويختتمون ذلك برفع أيديهم بالدعاء. وكان لا بدّ لكل واحد منهم أن ينام وإلى جانبه بطاقة هويته؛ فكثيراً ما استيقظوا على جنود من الدعم السريع موجّهين أسلحتهم إلى رؤوسهم، ليسألوا، في معظم الأحيان، ثلاثة أسئلة متتابعة: "بطاقتك وين؟ وين البيوت فيها العربات والذهب؟ شنو مقعدكم لحدي هسي؟" (81).

توضح الأسئلة المطروحة ثلاث مراحل في تعريف وضعية الشخص، وفي شكل العلاقة التي سينبثقها الجندي معه تبعاً لإجاباته. فإبراز الهوية يميّز مبدئياً "المدني" من "العسكري"، مجسّراً بذلك الانتقال من هوية "العدو المهدّد" إلى مرحلة أخرى يعرف "المدني" من خلالها إما بوصفه "متعاوناً" يشي بالمنازل الأجدر بالسرقة، وإما باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه وموضوعاً لشك لا بد من تبديده من خلال تقديم مسوغات مقنعة لعدم مغادرته المنطقة. وعبر الأسئلة الثلاثة، يدور المرء في حلقة يعبر فيها من تهديد إلى آخر، وتتسم حالته، في مختلف مراحل استجابته، بوضعية ثابتة هي الانكشاف إزاء عنف محتمل.

بالنسبة إلى من بقوا، يقلّل تجمعهم في مكان واحد احتمالية الموت. ففي كل مرة تتجهّم فيها مجموعة من الدعم السريع عليهم، يساندون بعضهم بعضاً بالتبريرات وبتقديم حجج معدّة بعناية وسرديات اتفقوا عليها حول هويتهم وأسباب بقائهم. ومثّلت الحاجة إلى النجاة، والتشارك في وضعية البقاء ضمن جغرافيا سياسية تعريهم أمام العنف المتفشي فيها، أهم أسس تشكّل هذه الجماعة. وتجسّد سلوكيات هذه الجماعة، مثل المكوث في الحيّ، وتوثيق الانتهاكات الممارسة، وإغلاق المنازل وحصر ما فُقد، وأداء الصلوات والأذكار الجماعية داخل المنزل (لأن الطريق إلى المسجد محفوف بمخاطر أكبر)، بعض ميكانيزمات النجاة والمقاومة المتاحة ضمن هذا الشرط. ومن خلال هذا الشكل

(80) خالد، مقابلة عبر واتساب، 2024/12/17. "أضحى الوضع أفضل لأنه لم يتبق شيء أصلاً (أي ليسرق).. ليس لهم إلا أن يأخذوا أسقف المنازل بعد الآن".

(81) عبد الله، مجموعة نقاشية، الدوحة، 2024/12/13. "أين بطاقة هويتك، أين البيوت التي يملك أصحابها سيارات وذهباً، وما الذي يبيقيكم في هذا المكان حتى الآن؟".

من التضامن، يجهد هؤلاء لاستعادة نسق الحياة اليومية وإنتاج معانٍ من داخل المنظومة المفروضة عليهم، في انتظار انفتاح إمكانية الفكاك.

يمكن إدراج ملاحظة أخيرة ترددت على مسمعي خلال عملي على هذا البحث، وهي استئجار بعض المواطنين الميسورين الذين نزحوا من العاصمة مواطنين آخرين للبقاء في منازلهم وحراستها من السرقة، بينما سمح آخرون لأفراد وعائلات بالسكن المؤقت فيها من دون دفع أجره أو تلقيها. لهذه الممارسة أبعاد كثيرة تلتقي عند السؤال التالي: كيف تعيد الحرب تشكيل العلاقات الاجتماعية والتعاقدية بين الأفراد؟ وقد بدا لي هذا الشكل من علاقات التبادل عصياً على التأويلات الأحادية، كأن توصف بأنها علاقات استغلال، أو أشكال تضامن مثلاً. إنه ذلك، وأكثر. وهذا "الأكثر" هو ما يستلزم استكشاف مداخل جديدة لتحليلها، لعلها تردنا إلى تجربة العيش / الموت في فضاء معسكر؛ ذلك لأن حالة البقاء في بيت آخرين، نظير أجره، تعكس رغبة في حماية الممتلكات لاقت حالة فاقة، وانحساراً في سبل كسب العيش خلال الحرب. إلى جانب ذلك، فهي بالنسبة إلى ملاك البيوت، في جانب منها على الأقل، تعبير عن فداء الجسد بالمال عبر استجلاب "جسد بديل" أكثر استعداداً، بحكم هشاشته الاقتصادية، للانكشاف إزاء أنماط متنوعة من العنف. ويفتح التفكير في هذا الشكل من العلاقات على أسئلة من قبيل: من بقي في الخطوط أثناء سيطرة الدعم السريع عليها؟ ولماذا؟ وهي أسئلة تكشف عن أزمات بنيوية وتواريخ من التهميش لعلها تتجاوز الإمكانيات التحليلية لمفهوم العسكرية.

## خاتمة

حاولتُ في هذه الدراسة استكشاف بعض التحولات التي طرأت على الحياة اليومية في السودان، نتيجة الصراع المسلح الذي اندلع، في نيسان/ أبريل 2023، بين الجيش وقوات الدعم السريع. وقد أثرتُ توظيف مفهوم العسكرية في قراءة هذه التحولات، لقيمتها التحليلية التي تعين على فهم ما يتبدى اليوم على مستوى الحياة اليومية، مع إتاحتها في الوقت نفسه ربط هذه التحولات بصيرورات متجذرة في تاريخ الدولة السودانية الحديثة. وتميّزت هذه المحاولة باستكشاف عمل العسكرية في نطاقات يسيطر عليها فاعل لادولتي (الدعم السريع)، لتستهلّ بذلك نقاشاً حول القيمة المضافة التي يمكن أن تقدّمها قراءة العسكرية، انطلاقاً من وحدات تحليلية أصغر من الدولة. وعلى الرغم من إدراكي أنّ عسكرية الحياة في السودان ليست مخصصة بهذه القوة؛ ذلك لأن مظاهر تسليح المدنيين وانتهاكات حقوقهم وعسكرة اللغة اليومية سائدة أيضاً في نطاقات سيطرة الجيش، فإنّ خصوصية هذه الحالة أتاحت استكشاف نمط متميز من الذاتية، مشتق من المنطق الحاكم للفعل العسكري لدى القوة اللادولتية، وما يشكّله من فضاءات حياة/ موت تفسح فيه سيادة الدولة الوطنية الطريق لسيادة نقيضها.

على الصعيد النظري، ثمة مرتكزان رئيسان شكّلا عماد هذه المساهمة: أولهما إعادة تأطير العسكرية ضمن الافتراضات المؤسسة للدولة الحديثة، والتي كشفت عن بعض المركزية التي حكمت تطور المفهوم ودراسته على نحوٍ محدد. وثانيهما موقعة حرب نيسان/ أبريل 2023، ضمن صيرورة تاريخية من العسكرية، بما يقتضي إعادة تعريف هذه الحرب بوصفها لحظة تكثيف وتوزيع لمسارٍ يمتد إلى

بدايات تشكّل الدولة السودانية من ناحية، والنظر إلى العسكرة، من ناحية أخرى، بوصفها صيرورة لإعادة تشكيل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، ضمن جغرافيا سياسية محددة، وفق اعتبارات الممارسة العسكرية بوصفها ممارسة سيادية.

وهاتان الخطوتان هما بعض مستلزمات مقاربة العسكرة انطلاقاً من عدسة اليومي؛ إذ أوضحنا كيف تغدو مجريات المعارك العسكرية ونتائجها عاملاً حاسماً في تقرير الشكل الذي تتخذه حياة المدنيين في نطاقها. وما يميّز هذه الحياة تحرّكها على متّصل من الهشاشة المنتجة عبر تاريخ ممتد، والمُعاد إنتاجها ضمن سياق حرب نيسان/ أبريل، ومن ثم قُعدت أساساً لتمثّل هيئات جديدة للجسد، والفضاء - الزمان، والآخر، والدولة، ونقائضها، والموقع الذي تحتله الذوات في العلاقة بها.

تغيّر الكثير منذ أن استهللت العمل على هذه الدراسة، التي حذفت منها جوانب عديدة، إذعائاً لحدود موضوعها وأهدافها. ولعل أبرز تجلّيات حدودها ضيق حركتها المكانية مقارنةً بحركتها الزمانية، المجسّدة في تتبّع العسكرة بوصفها صيرورة تاريخية. ولنا في حالات النزوح ومسارات الهجرة التي ترسمها آثار أقدام النازحين واللاجئين من ولايات الحرب بؤراً معرفية وسياسية تنتظر استكشافها. وإلى جانب هذا السكون المكاني، تبرز محدودية مجالها الإثنوغرافي، باقتصاره على حيّز لا يتعدّى ثلاثة أحياء من مدينة الخرطوم، هذا فضلاً عن العدد المحدود للظواهر المُسترشّد بها في استقراء تظاهرات العسكرة على صعيد الحياة اليومية، والتي استُبعدت منها، على سبيل المثال التحولات الجارية في أنماط الزواج وطقوس الدفن، والتي قد تختزن معارفَ أعمقَ عمّا يعنيه العيش/ الموت في سياق حرب نيسان/ أبريل.

هذه بعض الأسئلة التي لم يسعني الإجابة عنها، والتي أ طرحها في الختام في إطار دعوة إلى مشاريع بحثية مستقبلية. وليست هذه الدراسة، بعيداً عن أهدافها المعلنة، سوى محاولة متواضعة لاقتراح مناظير جديدة، تغادر المداخل التي حكمت تاريخ التفكير في أزمات السودان. فالعسكرة، إذاً، ليست سوى مدخل من بين مداخل متعددة للقراءة، أمل أن نبدأ استكشافها على نحوٍ جماعي. وما اليوميّ إلا نيلنا المهيب الذي تقبع في أعماقه مواقع جديدة للمعرفة والحرية.

## References

## المراجع

### العربية

أحمد، حسن الحاج علي. "الانقلاب العسكرية بمنزلة عملية سياسية: الجيش والسلطة في السودان". سياسات عربية. العدد 24 (كانون الثاني/ يناير 2017).

\_\_\_\_\_. "فترة انتقالية مضطربة: تحولات التحالف الهجين في السودان". عمران. مج 12. العدد 47 (شتاء 2024).

أرندت، حنة. في العنف. ترجمة إبراهيم العريس. بيروت: دار الساقي، 1992.

- أسد، طلال. جينالوجيا الدين: الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام. ترجمة محمد عصفور. بنغازي: دار المدار الإسلامي، 2017.
- أغامبين، جورجيو. حالة الاستثناء: الإنسان الحرام (1،2). ترجمة ناصر إسماعيل. القاهرة: دار الكتب المصرية، 2015.
- \_\_\_\_\_. المنبذ: السلطة السيادية والحياة العارية. ترجمة عبد العزيز العيادي. بغداد/ كولونيا: منشورات الجمل، 2017.
- إبراهيم، عبد الله علي. جنجويد وحاكورة: الماركسية وصدأ الريف. الخرطوم: دار المصورات للطباعة والنشر، 2022.
- بشارة، عزمي. الجيش والسياسة: إشكاليات نظرية ونماذج عربية. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- جيجيك، سلافوي. العنف: تأملات في وجوه الستة. ترجمة فاضل جتكر. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- الجيش والسياسة في مرحلة التحول الديمقراطي في الوطن العربي. محمد جمال باروت (محرر). الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.
- حمدي، زهير. "انقلاب مصر: مقارنات تاريخية بتجارب أخرى". سياسات عربية. العدد 4 (2013).
- خوجلي، عبد الرحمن. الجيش والسياسة. الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2012.
- دورلين، إلزا. فلسفة العنف. ترجمة جلال بدلة. بيروت: دار الساقى للطباعة والنشر، 2021.
- دو سارتو، ميشال. ابتكار الحياة اليومية: فنون الأداء العملي. ترجمة محمد شوقي الزين. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2011.
- الزين، حواء والشفاء الأمين. "سجال الكلمات والرصاص في السودان: تحليل إثنوغرافي رقمي لخطاب حرب الخامس عشر من نيسان/ أبريل". عمران. مج 14، العدد 53 (صيف 2025).
- شميت، كارل. مفهوم السياسي. ترجمة سومر المير محمود. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2017.
- الفكي، عبد الرحمن. تاريخ قوة دفاع السودان. الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 1971.
- كاليفاس، ستاثيس. منطق العنف في الحروب الأهلية. ترجمة عبيدة عامر. الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2021.

- كوريتا، يوشيكو. علي عبد اللطيف وثورة 1924: بحث في مصادر الثورة السودانية. ترجمة مجدي النعيم. القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 2004.
- لوفيفر، هنري. "معرفة الحياة اليومية: الماركسية بوصفها معرفة نقدية بالحياة اليومية". ترجمة نادر ديب. أسطور. مج 3، العدد 5 (كانون الثاني / يناير 2017).
- مبروك، مهدي. "أوهام الاستثناء التونسي: المجتمع المدني وامتحان تجربة الانتقال الديمقراطي". عمران. مج 13، العدد 50 (خريف 2023).
- محمد، محمد سليمان، السودان: حروب الموارد والهوية. ط 3. الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، 2010.
- مكاوي محمد قيلي، بهاء الدين. "تنامي ظاهرة العسكرة في السودان: المظاهر والأسباب والتداعيات". سياسات عربية. مج 12، العدد 71 (تشرين الثاني / نوفمبر 2024).
- ناشف، إسماعيل. صور موت الفلسطينيين. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.
- \_\_\_\_\_ . "عمل الحد: قراءة مختلفة للصهيونية". تبين. مج 9، العدد 34 (2020).

## الأجنبية

- Adler, Patricia A., Peter Adler & Andrea Fontana. "Everyday Life Sociology." *Annual Review of Sociology*. vol. 13 (1987).
- Alexander, Michelle. *The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colorblindness*. New York: The New Press, 2010.
- Biehl, João, Byron Good & Arthur Kleinman (eds.). *Subjectivity: Ethnographic Investigations*. Berkeley: University of California Press, 2007.
- Butler, Judith. *Frames of War: When Is Life Grievable?* London: Verso, 2009.
- Enloe, Cynthia. *Globalization and Militarism: Feminists Make the Link*. 2<sup>nd</sup> ed. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2016.
- Gareth, H. H. & C. Wright Mills. *From Max Weber: Essays in Sociology*. New York: Oxford University Press, 1946.
- Günel, Gökçe & Watanabe, Chika. "Patchwork Ethnography." *American Ethnologist*. vol. 51, no. 1 (2024).
- Hall, Abigail R. & Christopher J. Coyne. "The Militarization of U.S. Domestic Policing." *The Independent Review*. vol. 17, no. 4 (2013).

Hermez, Sami. "'The War Is Going to Ignite': On the Anticipation of Violence in Lebanon." *Political and Legal Anthropology Review*. vol. 35, no. 2 (2012).

Kuhn, Philip A. *Rebellion and Its Enemies in Late Imperial China: Militarization and Social Structure 1796–1864*. London: Harvard University Press, 1970.

Mann, Michael. *War and Capitalism: Studies in Political Sociology*. Oxford: Basil Blackwell, 1988.

Mbembe, Achille. "Necropolitics." Libby Meintjes (trans.). *Public Culture*. vol. 15 (2003).

Mohammed, Nadir A. L. "Militarization in Sudan: Trends and Determinants." *Armed Forces & Society*. vol. 19, no. 3 (1993).

Nelson, Lise & Joni Seager (eds.). *A Companion to Feminist Geography*. Malden, MA: Blackwell Publishing, 2005.

Vagts, Alfred. *A History of Militarism: Civilian and Military*. New York: The Free Press, 1959.

West, Brad & Thomas, Crosbi. *Militarization and the Global Rise of Paramilitary Culture: Post-Heroic Reimaginings of the Warrior*. Singapore: Springer, 2021.